الرسالة



السنة الخامسة | ٨ فبراير سنة ١٩٣٧ | العدد ١٨٨

5 me Année, No. 188

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 8 - 2 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العـــدد ١٨٨ « القاهرة فى يوم الأثنين ٢٦ ذى القعدة سنة ١٣٥٥ — ٨ فبراير سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

لو كنا نقرأ . . .

فى مصر تسعمائة وتسعون فى كل ألف لا يقرأون ، وتسعة من العشرة الباقية ينتفون الأخبار من الصحف اليومية ، ويقطفون النكت من المجلات الخفيفة ؛ وواحد هو الذى يقرأ الكتاب المثقف ويطالع المجلة المهذبة ؛ وهذا الواحد الأحد يدركه فى أكثر العام فتور الطبع أو عدوى البيئة أو فوضى النظام فيعاف الكتاب ، ويجتوى الصحيفة ، ثم يقعد فى مشارب القهوة يتقمع ، أو يسير فى مجالى الطبيعة يتأمل . أو يضطجع فى مراقد السكينة يستجم . ذلك تقدير مقارب تهجم به على (مصلحة الأحصاء) وفى يدينا استقراء متتبع لا يتهيأ لغير من قضى أكثر العمر فى التعليم والتأليف والصحافة . وتقدير المؤلفين والكتاب فى هذا الباب هو الكاشف الحق عن مكان الأمة من التربية القويمة والثقافة السليمة والرقى الصحيح . أما قياس درجة الرقى على نسبة القارئين بالقوة لا بالفعل ، فذلك عمل كل ما يدل عليه أنه خانة فى سجل التعداد — ماذا يردُّ على العقلية المصرية إذا بلغ (فكاكو الخط) فينا مائة فى المائة ما دام فك الخط لا يطلق عقلا أسيرا ولا يجلو بصرا حسيرا ولا يذكى قريحة كابية ؟ أوافق مصلحة الأحصاء على أن فى الخمسة عشر مليون نفس أكثر من مليونى قارىء ، وأن فى هذين المليونين ألوفا من ذوى الشهادات المدرسية والدرجات الجامعية يستطيعون أن

يكشفوا للعقل آفاق المعرفة ، وينهجوا للنفس طرائق الكمال ؛ ولكنك إذا وازنت بين عدد المتعلمين وعدد ما يطبع من الكتاب ومايوزع من الصحيفة خامرك الشك في إحصاء المصلحة ، أو في تعليم المدرسة ، أو في عقلك أنت ! ينشر في العام كله بضعة من الكتب يتراوح ما يطبع من كل واحد منها بين الألف والثلاثة ، ثم تساق إلى قراءته بالطبل والزمر مصر جمعاء وفي معونتها العالم العربي أجمع ، ومع ذلك لا تنفد طبعته المباركة بعد الاغراء بالاعلان والاهداء قبل خمس سنين !

أليس معنى ذلك أن هذا الشعب أمي وإن عرف حروف الهجاء ، وعامي وإن تلقب بألقاب العلماء ؟ تتبّع الطالب من يوم دخوله روضة الأطفال إلى يوم خروجه من الجامعة ؛ فهل تراه يقرأ - إن قرأ - إلا كتب المدرسة أو ملخصات المعلم أو فكاهات الصحف ؟ إنك تراه ساعة الدرس وأذنه إلى فم الأستاذ ، ويده على القلم ، وعينه في الدفتر ، يختصر ما اختصر ، ويقتصر على ما اقتصر ؛ وتراه ساعة الفراغ يحاول أن ينقشه بالتكرار على صفحة ذهنه ، فيصدع رأسه بترديد ما لا يفهمه ، ويغثى نفسه بإساغة ما لا يهضمه ، حتى اذا خرج من المدرسة خرج مكروباً لا يتقار من الكلال والسأم ، فينفس عن صدره بالفكاهة الرخيصة أو القراءة السهلة ! فاذا نال الشهادة بالحفظ تبعه هذا النفور إلى منصبه إذا كان عبد الوظيفة ، أو إلى مكتبه إن كان حر العمل ، فيكره الأدب لأنه يتذكر درس (المحفوظات) ، ويعاف القراءة لأنه لم ينس درس (المطالعة) ؛ وعمله وأمله لا يقتضيانه التعمق ولا المزيد ، فيعود كما بدأه الله أمياً يعمل بالارشاد ، وفطريا يهتدي بالغريزة . والمعلم الذي يخرّج التلميذ اليوم ، كان هذا التلميذ نفسه بالأمس : أرسل إليّ مدرس في كلية الآداب كتاباً يسألني فيه أن أقطع عنه (الرسالة) لأنه لا يجد وقتا لقراءتها ، وهو لا يلقاك إلا حدثك بما قالته المجلة الفلانية عن الفتاة فلانة ، وما تهزأت به المجلة الأخرى من الاستاذ فلان ؛ ثم سأله أحد طلابه ذات يوم عن (واسط) فقال له : أحسبها مكاناً في طريق القصير ! قرأت هذا الكتاب فعذرت وكيل المعرض الزراعي الصناعي وقد دخل عليه مندوب الرسالة يطلب اليه « تصريحاً صحفياً » بدخول المعرض ، فقال له وأمارات التعجب الساخر تتخايل على جبينه العريض : ولكني لم أر هذه (الرسالة) قط ! فلم يجبه مندوبنا وانما أجابه حاجبه هو بقوله : لا ، يابك ! هذه مجلة صفتها كيت وكيت ؛ وأنا وابنتي نقرأها كل أسبوع ، ونجلدها كل سنة ! سمعت هذا الخبر فعذرت ذلك الباشا القاروني الذي أهديت اليه الرسالة لصلة بين أخي وبينه ، فردها على وقد كتب على غلافها الأبيض بالقلم الغليظ : (مرفود) فوقع في نفسي أن الباشا يتشبه بالملوك والخلفاء ، في رفد المعوزين من الأدباء والشعراء ، فهممت أن اكتب اليه أشكره وأستعفيه لولا أن نبهني صديق أوتي منطق الناس أن (مرفود) معناها (مرفوض) ولا أريد الترسل في هذا الحديث ، ففي ذاكرة كل صحافي من بابه طرائف وأعاجيب

الحق اننا لا نزال أمة أمية تنظر الى الكتاب نظر المتعظم الخائف ، أو المتقنع العازف ؛ وما دمنا لا نرى الكتاب ضرورة للروح ، كما نرى الرغيف ضرورة للبدن ، فنحن مع الخليقة الدنيا على هامش العيش أو على سطح الوجود

تتطور المذاهب والآراء ، كما تتطور الحلي والأزياء ؛ فاذا لم تتقصّ بالقراءة المتجددة أخبار هذا التطور في أطراف الأرض عشت في عصرك غريب العقل أجنبي الشعور وحشي الثقافة ، كالذي يلبس في الناس زيا مضى بدل زي حضر

إن من وظائف المدرسة أن تعودك القراءة وتعلمك كيف تقرأ ، وإن من وظائفك أن تقرأ وأن تعرف ماذا تقرأ ؛ فاذا لم تفعل هي فقد قصرت عن رسالة ، وإن لم تفعل أنت فقد فرطت في واجب .

ليت الذين يطلبون من الأدباء أن ينتجوا ويجيدوا الانتاج ، يطلبون من القراء أن يقرأوا ويحسنوا القراءة . فلو كنا نقرأ لخلقنا الكاتب والكتاب ولو كنا نقرأ لأخصبنا حقول المعرفة فأزهرت في كل مكان وأثمرت في كل نفس ؛ ولو كنا نقرأ لما كان بيننا هذا التفاوت الغريب الذي تتذبذب فيه الأفكار بين عقلية بدائية وعقلية نهائية ؛ ولو كان العالم العربي يقرأ لنشر من الكتاب زهاء مائة الألف ، ووزع من الصحيفة قرابة المليون ؛ وإذن تستطيع أنت أن تتصور كيف تزدهر الثقافة وتنتشر الصحافة ويتنوع الأدب ويرقى الأديب !

احمد حسن الزيات

حديث مجلس

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

زارني صديق، ففعلت ما يفعل المرء مثله في العادة حين يجيئه ضيف: قدمت له السجاير ليأخذ منها واحدة وأشعلت عود الكبريت. وكنت لا أشعر برغبة في التدخين في تلك اللحظة، فكانت أصابع إحدى يدي ممدودة إليه بالكبريت وأصابع اليد الأخرى تثني الغطاء على السجاير، فلما أشعل سيجارته رددت يدي إلى فمي وزممت شفتي لأنفخ وأطفىء النار ألفيتني أتردد ثم أتناول سيجارة.

وقلت لصاحبي وأنا أنفخ الدخان مثله «أرأيت... لم أكن أريد أن أدخن، ولكن العادة غلبتني حين رأيت النار في طرف العود بين أصابعي. وأنا أغالط نفسي وأقول لها مازحا إن الكبريت أغلى من السجاير، وإن من سوء التدبير أن أضيع عود كبريت من أجل سيجارة واحدة. وتروقني هذه المغالطة لأنها تفتح لي باب القياس والتمثيل فأقول إن الانسان كثيرا ما يضيع الكثير من جراء حرصه على القليل فما رأيك؟»

قال: «رأيي أن هذا صحيح. وسأقص عليك قصة»

قلت: «هاتها»

وسرني أني أطلقت لسانه وأنه صار في وسعي أن أستريح من الكلام، فأن من نقائصي أني طويل الصمت وإن كنت في العادة ثرثارا عظيما، وأحسبني أهرب بالصمت من النـاس، وبالثرثرة من نفسي

وسمعته يقول: «كنت منذ سنوات أتعلم العزف على الكمان، وكان معلمي تركيا ضيق الصدر من أولئك «المولوية» الذين يعيشون في التكايا ويزجون فراغ الحياة بالموسيقى وما تغري به. وكنت قد اشتريت «فرسا» جديدة للكمان - والفرس كما تعرف هي قطعة من الخشب المنجور ترفع عليها الأوتار، فلما رآها أستاذي غضب ورماها وقال إنها غليظة، وذهب يعنفني ويؤنبني كأنما كنت أنا صانعها، أو كأنما كنت أدري قبل ذلك شيئا عن الكمان والأوتار والفرس، فكرهت سوء خلقه وثقل على نفسي سلوكه وزهدت في التعلم - على هذا الرجل على الأقل - وزارني بعد خروجه صديق رآني منقبضا متجهما، فسألني عن السبب فحدثته به، فأحب أن يرى هذه «الفرس» التي أثارت كل هذا الخلاف، وكانت لا تزال على الأرض، فأشرت إليها فتناولها وقال: «هذه» وجعل يقلبها في يديه مستغربا، ثم طلب أن أدعها له، فقلت: «خذها ياسيدي» فما لها قيمة في الحقيقة فان ثمنها لا يزيد على قرشين، ولكن معلمي كان ممن يخلقون من الزبيبة خمارة عظيمة

ومضى بها صاحبي ونسيت الأمر كله جملة وتفصيلا، وإذا به بعد سنة أو نحو ذلك يقول لي إنه يتعلم العزف على الكمان وإن الدافع له على ذلك والمغري به كان هذه الفرس التي ظل بضعة شهور يخرجها من مكانها كلما خلا إلى نفسه ويتأملها

وهو الآن من خير هواة العزف على الكمان

قلت: «وأنت»

قال: «أنا.. انقطعت عن الدرس.. لم أجد أستاذا أقدر منه أو مثله قدرة وإن كنت وجدت كثيرين أرحب صدرا... على أني كنت أدور على المعلمين كارها وبي فتور شديد فكففت»

قلت: «هل تعلم أني أنا أيضا تعلمت العزف على الكمان.. ظللت أتعلم أكثر من سنة.. فلو أني واظبت لكنت الآن من أمهر العازفين على هـذه الآلة.. خمس وعشرون سنة.. من يدري.. لعلي كنت خليقا أن أتحول عن الأدب إلى الموسيقى. ولكن قلة الصبر.. والخجل من أن يسمع الجيران الأصوات النابية التي أخرجها.. والاستحياء من أن يعرف عني أني مبتدىء، كل هذا صرفني.. كما صرفتني عوامل أخرى عن الشعر..»

فابتسم وقال: «والآن؟»

قلت: «الآن.. أنا الذي كنت خليقا أن أكون شيئا. ولكن.. لا بأس.. أرانا بعدنا جدا عن الموضوع»

فابتسم مرة أخرى وقال «لا بأس..»

قلت: «صدقت.. كل شيء ككل شيء في هذه الحياة.. هبني كنت الشيء الضخم الذي كان يغريني الصبي والخيال الجامح بالطمع فيه والتطلع إليه فماذا إذن؟..»

قال: «كنت تكون أشد رضى عن نفسك»

قلت: «كنت أشعر.. كلا.. كان رأيي في نفسي يبقى كما هو.. ربما غرني رأي الناس أحيانا، ولكن بلائي أني حين أغتر

أدرك أنى مغتر فيسلبنى إدراكى هذا متعة الغرور . لست أقول إنى غير قابل أو مستعد للغرور أو عرضة له ، فانى كغيرى فى هذا ، والغرور لازم لاطاقة الحياة ، وبغيره لا أدرى كيف يطيق الناس عيشهم . ولكنى لا أزال أدير عينى فى نفسى وأتأملها وأفحصها وأنكت تربتها كما ينكت المرء الأرض بطرف العصى ، وأخلق بهذا أن يكشف للانسان عن حقائق غير التى يزيفها أو يموهها الغرور . . وأول ما يعرفه المرء — بفضل الفحص المتواصل والتدبر المستمر — هو حدودها ، ومتى عرف المرء حدود نفسه فأيقن أنها لن تغيب عن عينه قط . وقد يعالج توسيعها وإفساح ما بينها . . ولكنها تظل ماثلة أبدا . . والشعور بهذه الحدود كرب وبلاء . . والجهد الذى يبذله الانسان لعلاج النقص الذى يشعر به فى نفسه كرب آخر . . آلة محدودة القوة تريد أن تبلغ بها ما تستطيعه آلة أخرى أقوى منها . . هذا الجهد ماذا تظنه يكلف الآلة المسكينة المحدودة القوة والعزم . . وفوق كل قوة أخرى أعظم . . وتجاهد حتى تبلغ بنفسك فوق ما كان ظنك أنها قادرة عليه فلا تقنع بهذا . . لأن هناك مرتبة أعلى ومنازل أخرى أسمى ، فانت لاتزال تستحث نفسك وتدفعها وتخزها . . ولا نهاية لهذه الدائرة . . وهذه هى حياتنا جميعا . . فى الحقيقة والخيال . . محاولات مستمرة لعلاج ما نحسه من نقصنا . . ولا يخلو هذا من جانبه المضحك . . فقد يعيينا أن نصلح الفاسد ونعالج الضعف ، أو أن نعوضه من ناحية أخرى قابلة للزيادة والنمو فنروح نستر العيب أو الضعف أو النقص سترا نظنه وافياً كافياً أو نحتال لنبدو كأن قوتنا هى فى هذه الناحية التى نعرف ضعفنا فيها . والانسان ليس بشىء إذا لم يكن منافقاً مرائياً ودجالا كبيراً .

فقال صاحبى : « أو لا يدرك المرء حدود نفسه إلا إذا دأب على ادارة عينه فيها ؟ »

قلت : « لا . . ليست هذه سوى طريقة واحدة لمعرفة النفس ، ومثلنا العامى يقول إن سكة أبى زيد كلها مسالك . ولا أعرف من هو أبو زيد هذا . ولكنى أعلم أن المعرفة سكتها كثيرة المسالك . ومن المسالك التجربة والمعاناة . والتجربة تتيح للانسان أن يقيس ما عنده إلى ما عند سواه فيعرف فى أية ناحية قوته ، وفى أى النواحى نقصه وضعفه وتقصيره . . وأعترف لك بحقيقة . . لقد كنت فى سنى وفى ميعتى يهولنى أن أرى نفسى عاجزاً عن الحب الذى أرى غيرى قادراً عليه . . . نعم كنت أشعر بالاعجاب وبسحر الجمال وفتنة الحسن ، ولكن شعورى هذا كان لا يطول ولا يلبث أن يفتر . . ولم يكن الحب عندى أكثر من مظهر رغبة وقتية تزول اذا زال الداعى اليها كما يجوع المرء فيشتهى الطعام ، حتى اذا أصاب شبعه صد عنه ولم يعد يذكره إلى أن يجوع مرة أخرى . . فلا أرق ولا شوق ولا أحلام ولا بكاء ، وإذا حرمت حظاً فى باب الحب فكما يحرم المرء نصيباً من لون من ألوان الآكال كان يشتهى أن يفوز به . . وما أكثر ملايين الناس الذين يعيشون محرومين ويعلمون أنهم محرومون ومع ذلك يحيون ويسعدون بالحياة . . . كذلك كنت . ولم يكن إخوانى كذلك ، ولا كان الذين أقرأ أخبارهم فى كتب الأدب مثلى . فكنت أستغرب وأنكر من نفسى هذا الجمود أو إن شئت هذه الحصانة أو المناعة من الحب بالمعنى المعروف المألوف . الحب الطاغى العنيف الذى لا يفتر ولا يخبو له ضرام والذى يذكرك بمجنون ليلى وأشباهه . فأغرانى هذا الذى بلوته من نفسى بالتكلف ولججت فى التكلف حتى لكان يخيل الى أحياناً أن الأمر صار جداً لا هزل فيه . وكنت أشجع نفسى على الأرق وأحثها على التذكر والشوق ، وألح عليها بأجمل شعر الغزل فى الأدب العربى والآداب الغربية لأوحى إليها الروح الذى ينقصها ، وكنت أتمثل هذه الحالات التى يصفها الشعراء وأسمع بها من الاخوان ، وأروض نفسى على مثلها وأجعلها تستغرقنى حتى قلت شعرا كثيرا فى ذلك لا يشك قارئه فى أنه صادر عن عاطفة صادقة عميقة قوية . ولم أكن أنا أشك فى أن الأمر كذلك أيام كنت أقول هذا الشعر لأنى لم أزل أعالج نفسى بالايحاء اليها حتى صار الأمر أشبه ما يكون بالحقيقة . ولكنى كنت فى أعمق أعماق نفسى أدرك الحقيقة . وكنت أمتحن نفسى أحيانا بالبعد فلا أرانى أشتاق أو أتلهف أو أتحسر أو أصبو الى آخر ذلك . وأخيرا مللت هذا التكلف . وهذا من أسباب تركى للشعر . وثم أسباب أخرى ولكن هذا من أكبرها اذا لم يكن أكبرها » .

فاستغرب صاحبى وجعل ينشدنى بعض ما يحفظ — وما نسيت أنا — من شعرى ، ويسألنى أكان هذا تكلفا ، فقلت له « لم يكن الشعور الموصوف فى هذه الأبيات كاذبا ، فانه كان صادقا فى ساعته . . كان حبا قصير العمر جدا . . حب ساعة . . اعجاب

اذا شئت . نشوة عارضة كنشوة الخمر . وكونها عارضة . . . من فعل الخمر أو بتأثير الحسن لا يمنع أن الشعور الذى تحدثه صادق فى حينه . وقد يلح المرء على نفسه بالايحاء اليها حتى يشعر بما يشعر به العاشق الحقيقى . فيكون شعوره أيضا فى حينه صادقا . ولكن بعد ذلك . . بعد أن يثوب الرشد الذى أضاعه الخمر ، ويرجع الاتزان الذى أفسده منظر الحسن ، أو تعود الحالة الطبيعية التى اضطربت من جراء الايحاء . بعد ذلك يذهب ما جاءت به النشوة الوقتية ، وقد أفادنى علاج نفسى ورياضتها على أن تستغرقها الحالة التى أتمثلها . نعم بقيت عاجزا عن العشق وفى أمان من جنون الحب فان هذه طباع لا حيلة لى فيها ، ولكنى أصبحت بفضل هذه الرياضة أستطيع حين أفكر فى شىء أو أكتب شيئا أو أشغل بأمر أن أذهل عن الدنيا فلا أسمع ولا أرى ، ولا يستطيع شىء أن يصرفنى عما أنا فيه . . خرجت بفائدة على كل حال . وكثيرا ما ترى الانسان يطلب شيئا فيخطئه ويفوز بغيره . »

فقال « ولكنك محروم وهذا فظيع »

قلت « كلا . أنا على نقيض ذلك سعيد . مستريح من وساوس الحب وبلابله وهواجسه وتخريفه ، وفى وسعى دائما أن أمتع نفسى بالحسن وأنا هادىء الأعصاب مدرك لما أنا فائز به بلا اسراف أو غمط فى التقدير ، ومن غير أن أنغص على نفسى هذه المتع بعد ذلك بالوساوس والخيالات وما الى ذلك مما يكابده المحبون . . . وأقول لك الحق إنى أصبحت لا أصدق من يزعم أن حبه على نحو ما يصف الشعراء ومن اليهم . ولا أعتقد إلا أن ذلك نشوة يطيلون عمرها بالايحاء . والايحاء يا صاحبى — الى النفس والى الغير — عامل خطير الاثر فى حياتنا . صدقنى »

قال : « ولكنى جربت »

قلت : « ما أظن بك الا أنك تخدع نفسك . وهذه سنة الانسان أبدا . عد الى نفسك وحلل خوالجك بلا خوف من مواجهة الحقيقة ولا جزع ولا اشفاق . اجعل من نفسك شخصا مستقلا . طبيبا يفحص حالة ولا يعنيه الا مايهتدى اليه . وانظر مايكون . . ثم تعال واخبرنى . وأنا واثق أن النتيجة ستكون مطابقة لما حدثتك به عن نفسى »

فوعد أن يفعل . . ولكنه لم يعد إلى

ابراهيم عبد القادر المازنى

في الأدب المقارن

التفاؤل والتشاؤم

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

حب الحياة كائن فى طبيعة كل حى ، والرضى بها والاطمئنان إليها والاقبال عليها شيمة جميع الأحياء ما دامت بنياتهم صحيحة وحاجاتهم حاضرة ، والمرح واللعب غايتهم الأخيرة مادامت غرائزهم مقضية اللبانات مشبعة المطالب . ولما كان الانسان يمتاز بالخيال والفكر فإن له مطالب نفسية غير مطالب جسده الغريزية ؛ يرضى ويرتاح إذا قضاها ، ويقنط ويكتئب إذا أخطأها ؛ وليس يشكو الحى أو يألم ، وليس يسخط الإنسان أو ينقم ، إلا أن يغدو وهو سقيم الجسم أو محروم الغريزة أو ممنوع المطالب . فحب الحياة والاقبال عليها والرضى عنها هى الحال الطبيعية العادية ، وذم الحياة والعزوف عنها والسخط عليها حال طارئة استثنائية ، نتيجة لامتناع وسائلها وعدم مواتاة أسبابها .

فالمتشائمون قوم قست الحياة عليهم فحرمتهم قليلا أو كثيراً مما حبت به سواهم ، فثاروا عليها وكالوا لها قسوة بقسوة ، وجزوها على حيفها بمرير الذم والتفنيد ؛ فلسنا نرى بين المتشائمين الزارين على الحياة والأحياء رجلا صحيح البدن معتدل المزاج مجدوداً واثقاً بنفسه ، بل كلهم ممن أكسبتهم الوراثة والنشأة والبيئة أجساماً معتدلة أو أعصاباً مختلة ، أو ألحت عليهم الخطوب فحطمت مساعيهم ، أو اقتنعوا بعجزهم عن مُصاولة الأحياء فى ميدان الحياة ، فأورثهم ذلك حساً مرهفاً متيقظاً إلى مواطن الشر والقسوة والنقص فى الحياة ، فقعدوا يَبْرُون لها ولِلمقبلين عليها السهام .

وفى الحياة مواطن للنقص لاتحصى ، يهتدى إليها الناقمون عليها بلا عناء ، وهى تعرض مثالبها عليهم وتضع أصابعهم على نقائصها ؛ بيد أن المتفائل المعافى الجسم الناجع المسعى قلما يلتفت إلى تلك المساوىء ، وإذا التفت إليها فبرهة قصيرة يأسى فيها

ويعتبر ، ثم يعود إلى ما كان فيه من استمراء لمتعات الحياة واجتلاء لمفاتنها ، متعزياً بهذه المفاتن والمتعات عن تلك النقائص والمقابح ، باذلا جهده لتوفير السعادة لنفسه ولمن حوله ، ومَحْو ما يستطيع من أسباب الشقاء ؛ على حين يظل المتشائم أمام ما يروعه من مساوىء الحياة قائماً ، لا يريد أن يحوّل بصره إلى سواها ، بل يهوّل تلك المساوىء كما يسول له حسه المرهف وخياله المغرق .

والأدباء وغيرهم من رجال الفنون عادةً أرْهَفُ حساً وأبعد خيالا ممن عداهم ، وما من أديب إلا تتجسم له مقابح الحياة جهمة مقززة فى فترة من فترات حياته ، فتعافها نفسه ، وينقم عليها وعلى نفسه وعلى الأحياء جميعاً ؛ فأما من كان متفائلا بطبعه معتزاً بنفسه واثقاً من قدرته على خوض وغى الحياة ، فسرعان ما يخرج من تلك الغُمّة وتنتصر فيه دفعة الحياة القاهرة ، فيلتفت إلى ما بالحياة من مباهج بجانب ما بها من مآسٍ ، ويطلب العزاء ببعض تلك عن بعض هذه ، ويستنّ لنفسه مثلا أعلى جديداً فى الحياة ؛ وأما المتشائم المحس بوطأة الحياة الثقيلة على جسمه المتعب وأعصابه المنهوكة ونفسه الخائرة ، فيرفض كل عزاء ويأبى كل إيمان ويسخر من كل مثل أعلى

فالفرق الرئيسى بين المتفائل والمتشائم هو أن الأول يرضى العزاء والثانى يرفضه ، والأول يؤمن بمثل أعلى والثانى يأبى الإيمان بشىء ، فالمتشائم يرفض الدين فيما يرفض ، فالتشاؤم والدين ضدان لا يلتقيان : التشاؤم إزراء بالحياة وإنكار لجدْواها وتحقير لأبنائها ، والدين يبشر بجدوى الحياة الصالحة ويبث العزاء فى النفوس عن آلام الحياة . وما كانت الديانات الأولى كديانات المصريين والفرس إلا محاولة حاول بها الإنسان أن يفسر ما راعه من تجاور قوى الخير والشر فى الحياة ، وأن يتعزى بجانب الخير عن جانب الشر منها ، أما والتشاؤم هو فقد الإيمان بالحياة ورفض العزاء عن شرورها ، فالتشاؤم والدين نقيضان ، ولا ترى متشائماً إلا يُسِر الإنكار للدين أو يعلنه ، ولا مؤمناً معتصماً بدينه قد هوى فى لهَوات التشاؤم

وليس فقد الإيمان بالحياة ومثلها العليا - أو التشاؤم - ينتهى بصاحبه فى كل حالة إلى الإسراف فى رفضها واعتزالها ، بل هو ربما أدى إلى إسراف مناقض لهذا : إسراف فى انتهاب لذاتها القريبة وإشباع الغرائز النهمة منها ، تناسياً لمنغصاتها وتخلصاً من لذعات التفكير فى نقائصها ؛ فالمتشائمون المعتزلون للحياة الناقمون على الأحياء الساخرون من المجتمع ، والمتشائمون المستهترون باللذات المتهكمون بتقاليد المجتمع وأخلاقه ، الخارجون على عرفه المصادمون له فى عقائده ؛ أولئك وهؤلاء سيّان فى التشاؤم ورفض الإيمان والعزاء النفسى ، أو قُلْ هما طرفان متباعدان بينهما الوسط الذى يحتله المتفائلون الراضون بالحياة على علاتها ، المتسلون بنعمائها عن بأسائها فى قصد واعتدال ، المتشبثون ببعض مثلها العليا

على أن المتشائمين أنفسهم لا يَخْلون من عزاء وإن توهموا سوى ذلك ؛ وأشدهم إمعاناً فى التشاؤم لا ينضب من نفسه حب الحياة ، وعزاء أكثرهم هو ذلك الفن الذى يزاولونه ، هو أدبهم الذى يودعونه فلسفتهم المتشائمة وخطراتهم القاتمة ، ففى كتابة أفكارهم تلك راحة لنفوسهم المعذبة وشفاء لغرائزهم الظامئة ؛ ولولا أنهم ما يزالون يحبون الحياة فى صميم أفئدتهم ، على رغم إعلانهم الحرب عليها ، لما لبثوا بساحتها ؛ ولو أنهم يزدرونها ويزدرون أبناءها بقدر ما يزعمون ، لما حفلوا بتدوين آرائهم فيها وعرض تلك الآراء على أبنائها ؛ ففلسفتهم المتشائمة تناقض نفسها بنفسها

فإذا كانت فلسفةٌ تصدق أو تفسيرٌ للحياة يُقبَل ، فليست فلسفة المتشائمين بالتى ترجح وتفسر الحياة ، وليست رسالتهم التى يؤدونها إلى الإنسانية بالتى تُقبل ، لأن فلسفتهم كما تقدم تناقض نفسها ، وتناقض طبيعة الحياة التى بثت حبها فى جبلات أبنائها ، ومهدت من متعاتها ما يرجح شوائبها ، وزودت بنيها بالسلاح اللازم لهيجائها . ليست فلسفة المتشائمين بالمقبولة فى جملتها ، وإن احتوت فى أطوائها من صائب النظرات وبديع اللفتات وآثار الفكاهة والسخر والوصف والتحليل ما يمتاز به أصحاب ذلك المزاج ، وما يهديهم إليه حسهم المرهف المستوفز وخيالهم المتيقظ المسترسل

وفلسفات المتشائمين فى مختلف الأمم والأجيال متماثلة ، ومواضيعهم متقاربة : إسهاب فى شرح مظاهر تنازع البقاء ، وإطناب فى ذكر لئيم الطباع فى الأحياء وفى الإنسان خاصة ، وإصرار على تذكر الموت وكرور الزمن وحلول البلى ، وتهويل

لضعف الإنسان إزاء جبروت القدر ، وتصوير لنفاق المجتمع وجور أنظمته ، وتحقير للمرأة وموازنة بينها وبين الحياة ؛ وآراؤهم فى كل ذلك مَرَدُّها إلى اضطراب تكوينهم وتزعزع ثقتهم بأنفسهم وحرمانهم من شتى مطالب الحياة ؛ ففلسفة المتشائمين لا تدلنا على حقائق الحياة والكون ، بمقدار ما تدلنا على نفوس أصحابها وأمزجتهم وعوامل تكوين أذهانهم

فهم يجزعون لمرأى تنازع البقاء لأحساسهم بأنهم عزّل ضعفاء ، وينحون على المجتمع بقوارع الكلم لأنهم عاجزون عن الانغمار فيه ونيل الحظوة والصدارة به ، ويُذكِّرون الناس بالموت والدثور لأن الناس يتمتعون دونهم بالطيبات ، فهم يُسَلُّون أنفسهم بتكرار القول بأن تلك الطيبات عما قليل ذاهبة ، ويخوفون الناس بجبروت القدر لأن غيرهم يتمتعون بالقوة والاقتدار ، فهم يلوحون أمام أعينهم بالقدر الذى يتلاعب بهم ويضحك من تدبيرهم ، ويرمون المرأة بالغدر والتقلب لأنها تنى لغيرهم ، ويجاهرونها بازدرائهم إياها لأنهم يُسِرُّون الاحساس بازدرائها إياهم وإعراضها عنهم .

ولما كان مَرَدُّ المزاج السوداوى المتشائم إلى عوامل فردية محض ، من وراثة أو بيئة ، يظهر المتشائمون فى شتى الأمم والأجيال متفرقين لا اتصال بينهم من مدرسة أو مذهب ؛ على أن مسحة التشاؤم تطغى عادة فى آداب عصور الأدبار السياسى والضيق الاقتصادى والفوضى الخلقية ، فيَسُودُ الشك والرفض والتهكم المرير ، كما كان الشأن فى الأدب الروسى تحت الحكم القيصرى ؛ كما أن صبغة الايمان والبشر والتفاؤل تغلب فى عصور الرخاء والنجاح والمغامرة ، وهى الصبغة التى سادت الأدب الاغريقى فى عصره الذهبى عقب الانتصار على الفرس . فلما تلا ذلك عهد الادبار ظهر السخر والشك ومذاهب الرفض والاعتزال من جهة ، ومذاهب الاستهتار والاباحية من جهة أخرى

ولعل أشد أدباء الانجليزية نكيراً على الانسان وتهكما بمساعيه وتهوينا لشأنه هوجوناتان سويفت ، وهو أديب نشأ نشأة ضنكة مقلقلة ، ولازمه داء فى أذنه جشمه آلاما مبرحة ، وما زال حتى طغى على عقله فى أواخر حياته ؛ وحالف الاخفاق مطامحه السياسية وصاحب النحس غرامه ، فلم يبق له إلا الانزواء فى عزلته ببعض بلدان أرلندة ، وإلا أن يقول لبعض أصحابه إنه يمقت ذلك الحيوان المسمى الانسان من أعماق قلبه ، وما ذاك إلا لما كابد من عنت الظروف والأمراض ولَدَد الخصومات وغصص الاخفاق ، وهو الذى كان فيما عدا ذلك من أوفى الناس عهداً وأصفاهم ودا ، وهو الذى عطف على الأرلنديين ودافع عنهم ، على حين ناصبهم من قبل ذلك مواطنُهُ وزميله فى حرفة الأدب ادموند سبنسر . وكتاب سويفت « رحلات جليفر » على ما به من سلاسة وفكاهة وبراعة تصوير ، مملوء بالسخر المرير من الانسانية .

وزعيم التشاؤم فى العصر الحديث توماس هاردى ، الذى كانت أشباح الموت والبلى والقدر لاتبرح ناظريه ، وكان لا يمل تكرار موضوعه الوحيد فى شتى قصائده وقصصه : موضوع ضعف الانسان وقلة حيلته وعبث مسعاه ، حيال ضربات القدر الأعمى ، ودوران رحى الزمن الطحون ، فكان دائبا يتفنن فى اختراع المواقف المفجعة والظروف المنحوسة ، يتخذ مشاهدها فى المقابر والبرارى وفى الأيام الداجنة الكالحة ، ويطيف أشخاص روايته بين الموتى ، ويُنطق الموتى فى أشعاره ، ويغالى فى تصوير فجائع الحب : بين الغدر والسلو والنسيان والغيرة وجفاف الجمال ؛ فأشعاره لا تكاد تنتقل بك من غمة إلا إلى غمة ، ولا من محنة للانسان إلا إلى انتصار وحشى للأقدار عليه

ومعاصره أو خليفته فى هذه النظرة المتشائمة إلى نصيب الإنسانية فى الحياة هو هاوسمان ، الذى كان يحاكيه كثيراً فى اختيار مواضيعه وطريقة معالجتها و إجرائه الحديث فيها بين الأحياء والأموات . ومن نماذج ذلك الضرب من شعر التشاؤم قوله : « — أما برحتْ خيلى تحرث الأرض كعهدى بها ، إذ أناحى أسوقها وأسمع صليل شكائمها ؟ — بَلَى ماتزال تنقل خطاها وشكائمها تصلّ ، ولم يتغير شىء برغم أنك قد رقدت تحت الأرض التى كنت من قبل تحرثها — أو ماتزال الكرة تترامى ويتسابق خلفها الرفاق على شاطىء النهر ، وإن أك لا أستطيع اليوم نهوضاً ؟ — نعم تترامى الكرة بينهم وكلهم باذل فى اللعب جهده ، وذلك مرماهم قائماً وحارسه لا يَنِى — وفتاتى التى شقّ علىّ فراقها ، أسئمتْ البكاء واستطابت طعم الغمض ؟ — نعم هى ناعمة فى خدرها ، فنم أنت وقر — وهل

صديقى صحيح معافى وقد نحلتُ أنا وبَليتُ ؟ وهل وجدَ بعد فراشى فراشاً وثيراً ؟ – أجل أنا يا صاح لى ضجعة كأروح مايشتهيه الفتى : أسلَّى حبيبة رجل قضَى ، ولا تسألنّى حبيبة مَنْ »

ومن أمثلة الوراثة المختلة والمزاج السوداوى فى تاريخ الأدب الانجليزى كوبر وبيرون : كلاهما كان مضطرب التكوين اضطراباً أدى إلى ظهور الغرابة فى مسلكيهما وأدبيهما ؛ على أنهما رغم اتفاقهما فى ذلك كانا يختلفان ثقة بالنفس : كان أولهما ضعيفاً متناهياً فى الخجل ، وكان الثانى مفرطاً فى الزهو والاعتداد بمواهبه ونسبه ، فقنع كوبر بحياة العزلة ولم يعلن على الناس حرباً ، وإن ظهرت أعراض التشاؤم فى كثير من شعره ؛ أما بيرون فصادم المجتمع بمسلكه الخلقى كما هاجمه فى شعره ؛ ولما لفظه المجتمع الانجليزى زاد عتوًّا وجرأة ، وتحدياً لخصومه وتشفياً من مؤيدى النظم الاجتماعية التى كان يمقتها . هذا فضلا عما حفلت به آثاره عامة من تصوير لضعف الانسان وقصر مدته وعبث جهوده .

ورمز التشاؤم فى العربية هو ولا شك المعرى ، الذى اجتمع عليه من أسباب التشاؤم مالم يجتمع على غيره : من اعتلال التكوين الجسمى ، واختلال الصحة ، والحرمان من شتى اللذات ، واضطراب العصر الذى عاش فيه ، فجاءت فلسفته مثالا نادراً لفلسفات المفكرين المتشائمين : حقر الإنسان . وأنذر ببطش الأقدار ، وذكر بالموت ، وشك فى الدين ، وأزرى بالمرأة ، وندد بالمجتمع ، وفند الحكام ، وأطنب فى تنازع البقاء ؛ ورثى مع ذلك للإنسان ورأف بالحيوان ، وضاق بنفسه كما ضاق بغيره وحرم على نفسه اللذات . وعاش نباتياً ومات عزباً لم يجن على أحد ، وعبر عن نظراته النافذة الحكيمة التى سبق بها عصره ، تعبيراً شعرياً عربياً جزلا ممتعاً ؛ وكان صادقاً صريحاً : اعترف بأنه لم يختر تلك الحياة الضنكة إلا لأن سواها قد شآه ، فهو القائل :

ولم أرغبْ عن اللذات إلا   لأن خيارها عنى خنسنه

فقد كان لدقة حسه شديد الحرص على كرامته ، شديد التوقى لمواطن السخر والزراية ، فكان ذلك حائلا بينه وبين ماتصبو إليه غرائزه من متعات ، وكانت حياته معركة طويلة قائمة داخل نفسه ، بين الرغبة فى الاستمتاع بطيبات الحياة والاصرار على رفضها ، لاستعصاء سبلها على الكفيف المجدور ، إلا أن يبيح كرامته ويهدر حياءه . وما أطار خياله إلى طيبات الفردوس إلا حرمانه من طيبات الحياة وطول نزوع نفسه إليها . وما كان وصفه لمتعات الخلد إلا إرضاء لشهواته المخمدة تحت رماد التوقر والتقشف . وما كان تأليفه رسالة الغفران أو اتخاذه الخلد مسرحا لها إلا تنفيسا عن مكتوم نوازعه ؛ وبفضل هذه النوازع المكبوتة خلّف المعرى الكفيف أثراً من آثار الخيال فريداً فى اللغة ، كان المبصرون من أدباء العربية منصرفين عن مثله

والمعرى نسيج وحده فى التشاؤم فى العربية ، يرفع راية الرفض للحياة والاعتزال لها والازراء عليها ، ويمارس فى حياته ما ينادى به فى أشعاره ، ولا ينضوى تحت تلك الراية سواه : إنما كانت غالبية المتشائمين فى العربية الذين نبذوا الايمان ورفضوا العزاء وهانت عليهم الحياة فلم يجدوها أهلا لسعى ولا لحفاوة ، هم طائفة المتشائمين المستهترين ، الذين ظهروا حين طغت تيارات الترف والمادية والشكوك ، على المجتمع والعقائد فى العهد العباسى كبشار وأصحابه ، وأبى نواس وأضرابه ، أولئك ساقهم تفكيرهم إلى تصغير الحياة وما يقدس الناس من مثلها العليا ، فلم ينبذوا الحياة جملة بل راحوا يطفئون غليل نفوسهم المتحرقة فى لذات الحياة الدنيا ، ويشبعون غرائزهم الحيوانية متهكمين بما عدا ذلك مما يسميه المجتمع فضائل وعظائم وعقائد . وأبو نواس هو القائل :

وما هنأتك الملاهى بمثــل إماتة مجد وإحياء عار

والقائل :

قلت والكأس على كفــى تهوى لا لتثامى :
أنا لا أعرف ذاك الـيوم فى ذاك الزحام

وإنما حرضهم على سلوك تلك السبيل ماكان يسود عصرهم من حرية تقرب من الإباحية ، وما كان يسود المجتمع العربى دائما من صراحة لانظير لها فى المجتمع الانجليزى ، حيث التقاليد الاجتماعية شديدة الصرامة ، فعلى حين كان يتأتى لبشار وأبى نواس وأضرابهما أن يباشروا وهم معافون حياة الاستهتار التى باشروها ، ويتهكموا بعقائد غيرهم ماشاءوا ، ويترنموا بمخازيهم شعرا ، نرى بيرون الذى لم يجَرْ إلى مداهم يُلفظ من المجتمع الانجليزى الذى بجّله من قبلُ لشعره وحسَبه

وحياة المعرى وبشار موضع لموازنة ممتعة : كلاهما عاش

كفيفا ، أى مكفوفا إلى مدى بعيد عن كثير من مسرات الحياة ومتعات المبصرين ، فخلقت فيهما تلك الحالُ وحشة وشذوذا وزراية على الحياة والأحياء ، ولكن المعرى كان دقيق الحس مرهف الأعصاب ضعيف البنية ، فنفض يده من الحياة ونجا بالسلامة والكرامة ، وبشار كان مفرط الجسم متنزّى الحيوانية مضطرم الشهوة ، فأكب على إشباع شهواته مستهدفا لزراية الآخرين وتهكمهم ، وشهر عليهم سوط لسانه المقذع ، كما يشرع السبع المنهمك فى تمزيق فريسته مخلبه لذبّ غيره من السباع عنها .

تلك مظاهر التشاؤم ، أو فقه الإيمان بسمو الحياة والعزاء النفسى عن شوائبها ، فى الأدبين العربى والإنجليزى ، وفيما عدا ذلك كان أقطاب الأدبين - لما يتدفق فى شرايينهم وشرايين أمتيهم من دفعة الحياة - متفائلين متشبثين بأهداب المثل العليا التى ترضاها لهم طبائعهم وبيئاتهم ، يَغبرُّ لهم وجه الحياة حينا فيبدو أثر ذلك عابسا فى آثارهم ، ثم يجنحون إلى التعزى والإيمان : فملتون فى الإنجليزية مثلا على فرط ما لاقى من خذلان فى حياتيه الفردية والعامة وما حل به من فقدان البصر ، ظل وطيد الايمان متطلبا للعزاء إلى منتهى حياته ، وكتب ملاحمه فى أواخر أيامه طلبا للترفيه عن نفسه ولكى « يبرر للناس أعمال الله » ؛ والمتنبى فى العربية رغم ما أصاب من إخفاق متوال فى مطلب حياته الأسمى ، الذى « جل أن يسمى » ، ورغم ما كابد من حسد وكيد وعداوة ، وما صب على الناس من قوارص كلمه ، ظل أبدا « من نفسه الكبيرة فى جيش وفى كبرياء ذى سلطان » ، متدرعا متأهبا للجلاد .

وإن يكن هناك مجال للمقابلة ، فالأدب العربى لا شك أكثر اصطباغا بالتفاؤل والايمان ، على كثرة ما به من الشكوى ؛ والأدب الإنجليزى أحفل منه بآثار التشاؤم ، ولاسيما فى العصور الحديثة التى زادت الحياة فيها تعقدا ووطأة ؛ وإنما يبث ذلك التفاؤل فى المجتمع والأدب العربيين أمران : صحو الجو الذى يعدل المزاج ويبعث البشر والطلاقة ، والدين الاسلامى الذى يبث الايمان فى النفوس ويحض على اجتلاء متعات الحياة التى أحل الله ، والذى هو كما تقدم القول أكثر تغلغلا فى سرائر معتنقيه ، وشمولا لجوانب حياتهم من غيره من الأديان .

١٤ ٥ ٨ **فخرى أبو السعود**

ضوء جديد على مأساة شهيرة

هل قتل الحاكم بأمر الله أم احتفى ؟

نظرية الدعاة المصريين ومزاعمهم

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمة

تلك هى النظريات والشروح الغريبة التى لجأ إليها الدعاة لتفسير اختفاء الحاكم وغيبته ؛ ولا ريب أن اختفاء الحاكم على هذا النحو الفجائى كان ضربة شديدة للدعاة ؛ فقد كان الحاكم ملاذهم وحاميهم ، وكان شخصه محور دعوتهم وعماد مزاعمهم ؛ فلما اختفى الحاكم انهارت الدعوة فى مصر بسرعة ، وتفرق الدعاة فى مختلف الأنحاء اتقاء المطاردة به ، ولكن الدعاة ألفوا فى هذا الظرف ذاته مستقى جديداً لدعوتهم ؛ فقد اختفى الحاكم ولكن إلى رجعة ؛ وليس على المؤمنين أن يعرفوا أين اختفى وكيف اختفى ؛ ولكن عليهم بالصلاة والاستغفار حتى يرضى عنهم ، ويعود إليهم عند ما تحل الساعة ، ذلك لأنه اختفى غضباً عليهم لما أمعنوا فيه من الآثام والخطايا ، ولن يظهر إلا عند ما تصفو قلوب المؤمنين وتصفو نياتهم ؛ وفى هذا الاختفاء ذاته ، دليل ساطع على ألوهيته وخارق قدرته ، وهو فى السماء أو فى الأرض روح بلا جسم ، يشرف على عباده « وإنه ليراهم من حيث لا يرونه » !

هذا وقد مضى إلى اليوم على مصرع الحاكم تسعمائة وخمسة عشر عاما ، ولا يزال الموحدون يؤمنون برجعته ويرقبونها ؛ ولم يقل لنا الدعاة أنى ومتى تكون هذه الرجعة من عالم الأبدية ، وكل ما هنالك أن حمزة يقول للمؤمنين فى رسالته الشهيرة ، « إنه متى أطلت عليهم رحمة الله خرج ولى الله إمامهم باختياره راضياً عنهم ، حاضرا فى أوساطهم . . » ويكرر الدعاة هذه الاشارة الغامضة إلى مثول الحاكم ورجعته فى رسائلهم ، ولا سيما رسالة الغيبة التى أشرنا إليها ، فيقولون : « إن مولاكم لا تخلو منه الدار وقد عدمته أبصاركم » ، « إن مولاكم يراكم من حيث لا ترونه » ، « أحسنوا ظنكم بمولاكم يكشف لكم عن أبصاركم ما قد غطاها من سوء ظنكم » ، وأمثالها من الاشارات والعبارات الرمزية

الجوفاء . وخلاصة مزاعمهم فى ذلك هو أنه متى حلت الساعة ، يقوم جند الموحدين من ناحية الصين ، ويقصدون إلى مكة فى كتائب جرارة ، وفى غداة وصولهم يبدو لهم الحاكم على الركن اليمانى من الكعبة ، وهو يشهر بيده سيفاً مذهباً ، ثم يدفعه إلى حمزة بن علي فيقتل به الكلب والخنزير وهما عندهم رمز الناطق والأساس ؛ ثم يدفع حمزة السيف إلى محمد « الكلمة » وهو أحد الحدود الخمسة ، وعندئذ يهدم الموحدون الكعبة ويسحقون المسلمين والنصارى فى جميع أنحاء الأرض ، ويملكون العالم إلى الأبد ، ويبسطون سلطانهم على سائر الأمم ، ويفترق الناس عندئذ إلى أربع فرق . الأولى الموحدون وهم « العقال » أو « العقلاء » والثانية أهل الظاهر وهم المسلمون واليهود والثالثة أهل الباطن وهم النصارى والشيعة ، والرابعة المرتدون وهم « الجهال » (الجهلاء) ؛ ويعمد حمزة إلى أتباع كل طائفة غير الموحدين فيدمغهم فى الجبين أو اليد بما يميزهم من غيرهم ، ويفرض عليهم الجزية وغيرها من فروض الذلة والطاعة ، وأما أصحابه فالعقلاء منهم يصبحون أرباب السلطة والمال والجاه فى سائر أنحاء الأرض [1]

والظاهر أن هذه المزاعم الأخيرة فى سحق أبناء الأديان الأخرى مستمدة من أقوال حمزة ذاته فى رسالته المسماة « النهاية والبلاغ فى التوحيد » إذ يقول : « وعن قريب يظهر مولانا جل ذكره سيفه بيدى ، ويهلك المارقين ويشهر المرتدين ، ويجعلهم فضيحة وشهرة لعيون العالمين ؛ والذى يبقى من فضلة السيف تؤخذ منهم الجزية وهم صاغرون ، ويلبسوا الغيار وهم كارهون »

تلك هى نظرية الدعاة السريين ومزاعمهم فى غيبة الحاكم وفى رجعته ، وهى نظرية فى منتهى الاغراق والجرأة ؛ بيد أنه لاريب فى سخفها ؛ وقد ألفى الدعاة بعد انهيار دعوتهم فى مصر ، ملاذا لهم فى الشام ، فوجهوا اليها أنظارهم ، وحاولوا بشروحهم ومزاعمهم الجديدة أن يستبقوا ولاء شيعتهم وأنصارهم هنالك ، وما زالت ثمة بقية من شيعتهم الى يومنا وهم طائفة الدروز

بيد أن الدعاة لم يكونوا مبتدعين أيضا فى نظريتهم الجديدة ؛ فقد رتبوا فكرة اختفاء الحاكم ورجعته على فكرة قديمة هى فكرة بعض غلاة الشيعة فى المهدى المنتظر ؛ ومنذ عصر على بن أبى طالب تتبوأ هذه الأسطورة مكانها ؛ ويزعم هؤلاء الغلاة ، وهم الرافضة ، أن عليا لم يمت ، ولكنه حى غائب عن أعين الناس مستقر فى السحاب ، صوته الرعد ، والبرق صوته ؛ ومنهم من يقول مثل هذا القول فى ابنه محمد بن الحنفية ، وأنه مستقر فى جبل رضوى من أعمال الحجاز ؛ ويقول آخرون وهم الاثنا عشرية إن هذا الامام المنتظر هو محمد بن الحسن العسكرى (وهو أيضا من ولد على) وأنه لم يمت ، ولكنه اختفى وغاب عن الأنظار ، ولا يزال مختفيا الى آخر الزمان ، ثم يخرج فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا [1]

فالقول باختفاء الحاكم مستمد من هذه الاسطورة القديمة ؛ وقد كانت هذه الأسطورة ، أعنى أسطورة الغيبة والرجعة ، وما يكتنفها من الرموز والغموض ، مبعث الخفاء دائما ؛ وكان هذا الخفاء ذاته مبعث الخشوع والروع فى المجتمعات الساذجة المؤمنة ؛ وكان مبعثا لا كثر من دعوة بالنبوة والامامة ؛ بل كان مبعثا لدعوى الألوهية ذاتها ؛ أليس منتهى الخفاء والروع أن يغيض الحاكم على هذا النحو الى حيث لا يعلم أحد ؟ وقد رأى الدعاة أن يستغلوا هذا الخفاء فى تأييد دعوتهم ، وأن يبثوا بين المؤمنين جوا من الرهبة والخشوع لذكرى ذلك الذى اختفى ليعود حين تحين الساعة ، والذى « يرى ولا يرى »

على أن هناك نقطة غامضة فى موقف الدعاة ازاء هذا الاختفاء إذا سلمنا بان الحاكم اختفى ولم يقتل ؛ ذلك هو الدور الذى يحتمل أن يكون قد أداه الدعاة فى هذا الاختفاء ذاته . فهل للدعاة يد ما فى هذا الاختفاء ؟ وهل دبروه أو اشتركوا فى تدبيره ؟ اليس من المحتمل أن يكون الدعاة هم الذين أقنعوا الحاكم بان يختفى تقوية للدعوة ، وتمكينا للزعم بألوهيته لدى الأولياء والكافة ؟ بل نستطيع أن نتساءل أيضا ، أليس من المحتمل أن يكون الدعاة قد فكروا فى اغتيال الحاكم خدمة لدعوتهم ، وأنهم دبروا مؤامرة لاغتياله أو اشتركوا فى تدبيرها واستطاعوا أن يحكموا تدبير جريمتهم ، لكى يستغلوا بعد ذلك فكرة الاختفاء على النحو الذى أسلفنا ؟ هذه أسئلة قد تخطر على الذهن فى مثل هذا الموطن ، خصوصا وقد كان حمزة وصحبه أهلا لكل اجتراء ، ولا تبعد فكرة الجريمة عن أولئك الذين اجترأوا على زعم الألوهية البشرية ، وسفكوا فى سبيلها دماء الأبرياء ؛ بيد أن هذه مسائل يحيط بها الظلام

(١) لخصنا هذه الشروح الأخيرة عن كتاب مخطوط عن طوائف لبنان لم يعرف مؤلفه وهو محفوظ بدار الكتب رقم ١٦ م .

(١) ابن خلدون — المقدمة ص ١٦٥

المطبق ، ولا يقدم التاريخ إلينا عنها أية لمحة أو ضياء ، ومن المستحيل أن نعاملها بأكثر من فروض عارضة ، وستبقى أبد الدهر على التاريخ لغزاً مغلقاً .

بيد أنه من الغريب أن تلقى هذه الفروض المغرقة سبيلها إلى دوائر البحث الحديث . فنرى المستشرق فون ميللر مثلا يأخذ بنظرية اختفاء الحاكم ، ويعلق عليها بما يأتى :

« أما أن أخته قد دبرت قتله لخوفها من تنفيذ وعيده لها بالقتل ، فهو حديث خرافة ، والواقع أن مصيره لم يعرف قط ، وعندى أنه طبقاً لكل ما نعرفه من حياته ، قد رأى استحالة تحقيق مبادئه فى مصر . فاعتزل الحياة واختفى فى مكان ما ليقضى حياته بعيداً عن الأنظار لكى يعتقد أنصاره على الأقل أنه هو « الناطق » حقيقة (ناطق الزمان) وأنه سيعود من رمسه آخر الزمان فى شخص الامام أو المهدى ؛ وهذا ما لا يزال ماثلا إلى اليوم فى عقائد الدروز » (١)

أما نحن فما زلنا نرجح فكرة المؤامرة والجريمة : وسواء أكانت المؤامرة من تدبير ست الملك ، أم من تدبير ابن دواس ، أم كانت من تدبير الدعاة أنفسهم ، وسواء أكان الذى ارتكب الجريمة هم عبيد ابن دواس ، أم البدو الذين اعترضوا الحاكم ليلة اختفائه : أم آخرون لم يعرفوا : وسواء أكانت البواعث السياسية أم البواعث الدينية هى التى أملت بتدبير المؤامرة وارتكاب الجريمة ، فأن ما لدينا من الروايات والقرائن على أن الحاكم قد زهق ضحية الجريمة ، يرجح فى نظرنا كل فرض آخر مما استعرضنا

وليس من المستحيل أيضا ، أن يكون الحاكم قد اختفى من تلقاء نفسه أو بتحريض الدعاة لبواعث أو مشاريع خيالية أو جنونية قامت فى نفسه : بيد أن هذا الفرض يبدو فى نظرنا من الضعف والاغراق بحيث لا نجد له موضعاً من التاريخ .

***

هذا والظاهر أن فكرة اختفاء الحاكم بامر الله لبثت مدى حين تردد بين آونة وأخرى حتى أوائل عهد المستنصر بالله ، أعنى بعد وقوع الحادث بنحو ربع قرن ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى قصة ذلك المشعوذ الذى تسمى « بأبى العرب » وزعم حينا أنه الحاكم ثم توارى بعد ذلك . بيد أن هنالك قصة أخرى من هذا النوع

(1) Von Muller : Der Islam I. P. 633

كادت أن تحدث فتنة حقيقية ؛ فى رجب سنة ٤٣٤ هـ (١٠٤٣ م) فى أوائل عهد المستنصر ، ظهر بمدينة مصر شخص يدعى « سكين » كان يشبه الحاكم فى بعض ملامحه ، وادعى أنه الحاكم ، وأنه بعث بعد موته وعاد من غيبته ؛ والظاهر أنه كان من عصبة الدعاة السريين ، وأن الدعاة أرادوا بدفعه إلى هذه المغامرة أن يحاولوا إثارة الفتنة التى خمدت ، وأن يطبقوا نبوءاتهم وما بشروا به فى رسائلهم من رجعة الحاكم بصورة عملية ؛ فالتف حوله فل الملاحدة ، من شيعة الدعاة الذين يعتقدون أو يتظاهرون بالاعتقاد فى هذه الخرافة ؛ وفى ظهر يوم سار سكين وأصحابه إلى القاهرة وقصدوا إلى القصر الكبير ، ولما حاول الجند منعهم نادى الملاحدة بأنه الحاكم ، قد عاد من غيبته ، فارتاع الجند مدى لحظة ثم ارتابوا فى الدعى فقبضوا عليه ، وحملوا على صحبه ، واشتبك الفريقان فى معركة حامية ضجت لها أرجاء القصر ، وقتل من الملاحدة عدد كبير وأسر الباقون ، وصلب سكين وأصحابه وقتلوا بالنبال شر قتلة (١)

وكانت هذه آخر مغامرة من نوعها ، ولا نسمع بعد ذلك شيئاً عن أولئك الدعاة الملاحدة أو دعوتهم بمصر . ولا نجد بعد ذلك أثراً لأسطورة غيبة الحاكم أو رجعته إلا فى الشام حيث استقرت الدعوة فى بعض أنحائه ورسخت حتى يومنا .

(النقل ممنوع قطعاً ـــ تم البحث) **محمد عبد الله عنان**

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ١٧٧ وأبو الفدا ج ٢ ص ١٦٦

النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

النفس سر الله فى خلقه وآيته فى عباده ، ولغز الانسانية الذى لم يحل بعد ، وقد لا يحل يوما ما . هى مصدر المعارف المختلفة والمعلومات المتباينة ، ولكننا لم تسم إلى أن نعرف حقيقتها معرفة صادقة يقينية ؛ وهى منبع الأفكار الواضحة الجلية ، إلا أن فكرتها عن ذاتها مشوبة بقدر كبير من الغموض والابهام . ومع هذا فالانسان منذ نشأته تواق إلى تعرفها جاد فى تفهمها ، ولا يزال حتى اليوم يبذل قصارى جهده فى إدراك كنهها والوقوف على أمرها . وبوده أن يعرف فى دقة ماهيتها ويدرك الصلة بينها وبين الجسم ويتبين مصيرها ومآلها . وكيف لا وهو طلعة يحب أن يعرف كل شىء ، وهو فى معرفة الأشياء المجهولة والامور المستترة أرغب . وإذا كان قد خطا خطوات فسيحة فى سبيل فهم الطبيعة وتوضيح آياتها فنفسه التى بين جنبيه أولى بالبحث والتوضيح ، هذا إلى أنه مدنى بطبعه لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن إخوانه وذويه ، ومعرفته لنفسه كثيراً ما تعينه على تفهم بنى جنسه ، وكم بذل الأخلاقيون والمربون من جهد فى تحديد الدعائم النفسية التى يقوم عليها اصلاحهم ووعظهم وتعليمهم وإرشادهم . والأديان والشرائع تخاطب النفوس قبل أن تخاطب الأبدان ، وتتجه إلى الأرواح أكثر من اتجاهها إلى الأجسام . والثواب والعقاب والمسئولية الأخلاقية والدينية بوجه عام تدعو إلى التفكير فى الروح وخلودها ومآلها بعد مفارقة البدن . ففى أحوال الانسان الفردية وظروفه الاجتماعية وأبحاثه العلمية وتعاليمه الدينية ما يدفعه إلى كشف ذلك السر الذى أودعه الله فيه والذى آمن به الناس جميعاً دون أن يروه .

لهذا كان موضوع النفس شغل الباحثين والمفكرين فى مختلف العصور ؛ وليس ثمت فيلسوف إلا أدلى فيه برأى وتعرض له بالبحث والتحليل ، وربما كان فى تاريخه ما يلخص تاريخ الفلسفة بأسرها . بيد أن ابن سينا ، فيما نعتقد ، قد عنى به عناية كبيرة لا نجدها لدى واحد من رجال التاريخ القديم والمتوسط . حقاً إن أفلاطون تحدث عن النفس فى محاورات عدة ووقف على خلودها محاورة مستقلة ؛ وكتاب أرسطو فى النفس ومؤلفاته المسماة « بالطبيعيات الصغرى » تصعد به إلى مرتبة أسمى عالم نفسى عرف فى التاريخ القديم . ولم يغفل أفلوطين أمر النفس فى تاسوعاته ، وشغل بوجه خاص بهبوطها من العالم العلوى واتصالها بالعالم السفلى ورغبتها الدائمة فى أن تعود إلى مقرها الأصلى . ولفلاسفة القرون الوسطى المسيحيين وخاصة أوغسطين وتوماس أبحاث مختلفة فى حقيقة النفس ووظائفها . إلا أن هؤلاء جميعاً لا يبدو عليهم الشغف بهذا الموضوع مثل ما شغف به ابن سينا ، فانه يعود اليه غير مرة ويقف عليه جملة رسائل مستقلة ، ويتحدث عنه فى كل كتبه الرئيسية التى وصلت إلينا . ففى كتاب القانون المعروف يبين قوى النفس المختلفة على طريقة الأطباء ويشير إلى الصلة بينها وبين الجسم [١] ، وفى الشفاء يعقد فصلا مستفيضاً يفصل فيه آراءه النفسية [٢] ، وفى النجاة يلخص هذا الفصل ويصوغه فى قالب مدرسى محكم ، وفى الاشارات ينظم فى نحو عشرين صفحة عقداً من مسائل علم النفس كله درر قيمة وآيات بينة . وله تعليق على كتاب النفس لأرسطو لا يزال مخطوطاً حتى اليوم [٣] ولم يقنع بهذا ، بل كتب رسالة قيمة فى القوى النفسية أهداها للأمير نوح بن منصور السامانى ، ورسالة أخرى فى معرفة النفس الناطقة وأحوالها ، وشرح هبوطها إلى الجسم وحنينها إلى مصدرها الأول فى قصيدة مشهورة . [٤]

كنا نتوقع وابن سينا هو الطبيب والفيلسوف أن يستخدم طبه فى دراسة الظواهر النفسية وأن يستعين بالملاحظة والتجربة على شرحها وتوضيحها فينمى معلوماتنا ويخطو بنا إلى الامام فى سبيل هذا البحث الدقيق . ولكنه ، فيما يظهر : كان يعتقد

---

(١) ابن سينا ، (القانون) ، حـ ١ ص ٣٣ ــ ٣٦ (طبعه رومة)
(٢) (الشفاء) ، حـ ١ ، ٢٧٧ ــ ٣٦٨ .
(٣) (فهرست دار الكتب المصرية) ، فلسفة ، رقم ٢١٤ .
(٤) لا يفوتنا أن نشير إلى رسالة (فى القوى الانسانية وإدراكاتها) موجودة فى المجموعة المسماة : (تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات) ، وقد أثبتنا من قبل ، وبيدنا الدليل القاطع . أن هذه الرسالة من عمل الفارابى
« Madkour, (La Place) 14. 128 »

أن الفصل فى مشاكل علم النفس ليس من عمل الطبيب ولا من دائرة اختصاصه، بدليل أنه يشير فى القانون إلى بعض نقط متصلة بالنفس وقواها قد اختلف فيها الأطباء والفلاسفة، ويصرح بأن الكلمة كلمة الأخيرين. وأن استيفاء هذه النقط إنما يتم فى كتبهم (١) والواقع أن التجارب المنظمة والابحاث العلمية الدقيقة المتصلة بالنفس أثر من آثار التاريخ الحديث وحده، بل القرنين الأخيرين فقط، وفى وسط طى حظر فيه التشريح وحرم من الأدوات الحديثة لم يكن فى الامكان دراسة المخ والجهاز العصبى دراسة تجريبية كاملة. ولا نكاد نحظى بباحث بين المسلمين نحا هذا المنحى التجريبى فيما وراء ابن الهيثم الذى أدلى بآراء فى الضوء والرؤية تقترب مما جاء به فيبير (Weber) حديثا (٢). وأما ما يذهب إليه ابن سينا من تقسيم المخ إلى مناطق تقابل قوى النفس المختلفة ومن ملاحظات فسيولوجية شتى فهو ترديد لما قال به أطباء وفلاسفة اليونان. فقد كان أمامه تراث عظيم خلفه أفلاطون وأرسطو وجالينوس وأفلوطين أفاد منه كثيراً وعول عليه التعويل كله. وإليه يرجع الفضل فى عرض هذا التراث فى صورة واضحة مهذبة لم نعهدها عند سابقيه، وإذا كان قد فاته أن يتوسع فى دراسة المخ والظواهر النفسية دراسة تجريبية فانه لم يفته أن يفتن فى البرهنة على وجود النفس وخلودها افتناناً يستلفت النظر ويستحق التقدير. ولعل ذلك راجع إلى أن النزعة الميتافزيقية والفلسفية البحتة غلبت عليه فى كل أبحاثه النفسية.

وبالرغم من أن ابن سينا عالة على السابقين فى أغلب آرائه المتعلقة بالنفس وأحوالها فانه قدر لهذه الآراء نجاح عظيم فى القرون الوسطى ولدى بعض رجال التاريخ الحديث، فكانت عماد علم النفس جميعه فى العالم العربى منذ القرن العاشر الميلادى إلى أخريات القرن التاسع عشر؛ وخلفت آثاراً واضحة فى الفلسفة المدرسية اليهودية والمسيحية؛ واتصلت بنسب إلى بعض ما جاء به ديكارت فى حقيقة النفس ووجودها. وقد عرف لها الباحثون المحدثون هذه المنزلة فسارعوا إلى دراستها وجمع مصادرها وبيان أثرها فى المدارس الغربية. وربما يكون البادرون كارادى فو من أول من لخصوها وحاولوا إعطاء فكرة

(١) ابن سينا، (القانون)، جـ ١ ص ٣٥.

(٢) De Boer, (Encyce. of Ethies), Soul.

عنها. فقد عقد لعلم النفس السينوى (نسبة إلى ابن سينا) فصلا فى كتابه المسمى: Avicenne (١). ثم جاء الدكتور صليبا أخيراً فتوسع فى هذا الموضوع قليلا فى رسالته التى تقدم بها إلى السربون للحصول على الدكتوراه (٢). أما من اشتركوا فى نشر مؤلفات ابن سينا السيكلوجية فيجب أن نشير أولا إلى الدكتور صمويل لانداور الذى نشر رسالة القوى النفسية المهداة إلى نوح بن منصور السامانى سنة ١٨٧٥؛ وقد وفق فى عمله هذا كل التوفيق وأحاطه بوسائل الدقة والبحث العلمى الصحيح (٣) فاعتمد على أصول عربية وعبرية ولاتينية ليختار النص المناسب والتعبير المقبول؛ ولم يفته أن يرجع إلى المصادر اليونانية رجاء أن يوضح بها بعض عبارات ابن سينا. وعلى ضوء مجهوده العظيم استطاع فنديك بعد ذلك بنحو ٣٠ سنة أن يعيد نشر هذه الرسالة مرة أخرى مع ترجمة انجليزية دقيقة (٤) وفى العام الماضى نشر ثابت أفندى الفندى أحد خريجى كلية الآداب ومبعوثها الآن فى باريس رسالة أخرى فى معرفة النفس الناطقة وأحوالها. ويظهر أن أثر أفكار ابن سينا السيكلوجية فى المدارس المسيحية قد شغل الباحثين ومؤرخى الفلسفة من قديم. ففى النصف الثانى من القرن الفائت نرى هانيبرج يدرس نظرية المعرفة لدى ابن سينا والبير الجراند (٥). وفى أوائل القرن العشرين كتب فنتر فى إحدى صحف مونيخ العلمية مقالا طويلا عن الجزء السادس من طبيعيات الشفاء المترجم إلى اللاتينية، وهذا الجزء هو الذى يدرس فيه ابن سينا النفس وقواها (٦) وفى سنة ١٩٢٩ وفى المسيو جلسن مؤرخ الفلسفة المدرسية المسيحية وأستاذها فى «كوليج دى فرانس» هذا الموضوع حقه من البحث، وبين أثر ابن سينا فى هذا المضمار بما لا يدع مجالا للشك (٧) وفى اختصار يمكننا أن نقول إن علم النفس عند ابن سينا

(١) Carra de Vaux, (Avicenne), P. 207-238.

(٢) Saliba,(Etude sur lo métaphysique d'Avicenne), Paris, 1926, P. 185 et suiv.

(3) S Landauer, (Die Psycholo, gie des Ibu Sinà), Z. D. M. G. 1896.

(2) (مبحث عن القوى النفسية)، نشر فنديك، القاهرة ١٣٢٠ هـ

(4) B. Haneberg, (Zur Erkenntnislehre von In Sinà und Albertus), München, 1866.

(9) M. Winter, (Uber Avicennas opus egregium de Anima, Munchen, 1903.

(7) Er. Gilson, (Archives d'his). r- IV 1929, P. 38- 74.

من روائع أدب الغرب

الخـــلود L'Immortalité

لشاعر الحب والجمال الفونس دى لامرتين

ترجمة السيد حسين نفاكجى

أحبا فبادلته حبه ، فراحا يرشفان أكؤس الغرام تحت ظلال الأشجار الباسقة .

فى أفياء الأدواح المنتشرة غنى لها لحن غرامه . فسمعه الطير على غصنه ، وأنصت له العصفور على فننه . اختلسا النعيم ساعات معدودة . حتى رمى الدهر سهم التفرقة ، فسافرت بعيدة عنه إلى باريس .

انتظر كتابا منها يطمئنه على صحتها يرجع الأمل إلى صدره ، وإلى فؤاده أشعة الحياة . ولكن ساعى البريد أتاه بكتاب نعيها .

مسكينة ؟ ! أماتت « جولى » . أو يموت من عاش لأجل الحب ؟ لم يصدق عينيه . سار يخبط خبط عشواء ، يردد ألفاظها ، يقف الساعات الطوال مكانه يرجع أنشودة غرامها .

إنها أمل رحل ، وحب مقيم .

لتلم قصيدته « الخلود » L'Immortalité فكانت قطعة من قلبه الملتهب ، ونشيدا لفؤاده المضطرب .

قضت « الفير » « كما يدعوها » نحبها . فدبت إلى جسم « لامرتين » يد المرض .

كان فى ريعان الشباب . ظن نفسه أنه على طريق الآخرة يسير . فلذا جاءت قصيدته « الخلود » جامعة لشتى معانى الفلسفة ، والحب والجمال ، والخلود ، والحياة والموت .(١)

إلى جولى

شمس حياتنا اصفرت وهى فى فجرها . ترسل على جباهنا الذابلة ووجوهنا المنهوكة المتعبة أشعتها المضطربة ، وأضواءها الحائرة ، التى تغالب طلائع الظلام وتناصب هواجمه . الظل يمتد ، النهار يموت ؛ كل شىء يزول ، وكل شىء يفر ويحول .

كم يهلع المرء لهذا المنظر الرهيب ويرتجف ! لشد ما يتراجع وهو راعن الأوصال مضطرب الفؤاد عن شاطىء الهاوية المائلة أمامه ! بل لكم يخفق قلبه الضعيف ، إذ ينصت من بعيد لتلك الأنشودة المظلمة !

تلك أنشودة الموت ، مازالت تتردد فى أعماق صدره ، وتنتشر فى أنحاء نفسه . وتلك الزفرات المتصاعدة والتنهدات المرسلة ، والانات المخنوقة ، والأنفاس المتحشرجة ، لهى آهات الحبيب ، وزفرات الخليل ، وانتحابات الولهى ، تضطرب وتتراجع ، تتقدم وتتأخر ، حول سرير الموت .

الناقوس الصغير ما زال يرسل الهمسات ، ويعلو بالخفقات . أصواته التى تطويها معالم الفضاء تنبىء الأحياء أن شقياً بائساً رحل ، ومكدوداً تاعساً إلى هوة القبر نزل

أحييك أيها الموت . أيها المنقذ السماوى ، سوف لا تظهر أمام ناظرى بهيئتك المرعبة ، وبزتك الموحشة ، وطلعتك المشؤومة . إن يمينك سوف لاتشارفنى بمرهف ماضيك ، إنى لا أرى تجهم وجهك ، ولا أقرأ فى عينيك معالم الجريمة والخيانة ، فأنت الذى تنقذنا من آلامنا ، تخفف من أحزاننا ، تأخذ بيمننا لتقودنا إلى حيث الرب الرحيم ، تستعدى رحمته على نكباتنا ، وتستنزل رأفته على ويلاتنا .

إنك لاتميت بل تنقذ ؛ إنك لا تهلك بل ترحم ؛ إن يدك يارسول السماء تحمل إلى نبراسا إلهيا ، يوم تغمض عيناى الكليلتان أجفانهما . تأتى تحت الأضواء المنعشة لتبلل ناظرى ، وتغمض عينى ، والأمل إلى قربك يطفر ، يظلله الايمان ، تشده التقوى ، فتفتح أمامى عالما رائعا

إلى أيها الموت . أقبل واكسر عنى أغلال الجسد . بدد عن نفسى قيود الأوصال . افتح باب سجنى واكسر مغالق حبسى وأعرنى أجنحتك الرفراقة ، وقوائمك الهفهافة . ماذا يمنعك عنى ؟ . لماذا تتأخر ؟ ماذا يعيقك عن زيارتى الأخيرة ؟ تقدم إلى . فانى أريد أن أرمى بنفسى نحو ذلك الكائن المجهول ، حيث أعرف سر حياتى ومماتى .

(١) اقرأ تفصيل ذلك فى كتابه (رفائيل)

كان أعظم حظاً من أجزاء فلسفته الأخرى وكان نصيبه من الدراسة والبحث أكبر منها جميعاً بيد أن هذه الدراسات على اختلافها ناقصة وغير مقنعة . فبعضها لا يخرج عن ترجمة حرفية أو ملخص غير كامل لآراء ابن سينا . وبعضها يعنى بهذا الفيلسوف لدى اللاتينيين أكثر من عنايته به لدى العرب ، ويفصل القول فى أثره فى الغرب تاركا جانباً ما كان من أمره فى الشرق ، وأغلبها ينسى الأساس اليونانى الذى بنى عليه فلسفته عامة وأبحاثه النفسية خاصة . وسنتتبع هنا آراءه النفسية المختلفة مبينين أولا صلتها بالوسط الذى نشأ فيه وبالأفكار الاسلامية على العموم وباحثين ثانياً عن منابعها لدى فلاسفة اليونان وأطبائهم ، ومظهرين أخيراً ما كان لها من أثر فى الشرق والغرب .

ابراهيم مدكور

أى شىء فصل عنى؟ من أنا؟ ومن سأكون؟ .

أموت ولا أعرف ماهية الحياة وسر الوجود ، وأذهب وأنا أجهل ما البقاء! ما أنت أيتها الروح المبهمة ، أيها الطيف المجهول؛ أيها السر الغامض . قبل أن أردى فى لحدى أريد أن أسألك . أية سماء بحقك تسكنين؟ وفى أى عالم تعيشين ؟ وأى قدرة إلهية رمتك إلى هذه الكرة المحطمة ، حيث عالمنا الضعيف الهشيم . وأى يد إلهية قذفت بك إلى سجنك الفخار ، واعتقلتك فى محبس الطين؟ وأى سر عجيب ربطك بالجسد وربط الجسد بك وأى يوم تنسلخ الروح فيه عن المادة؟ وتصبح عالما بنفسها ، تقوم بأودها دون أن تعتمد على الجسد البالى والجسم الفانى؟

إلى أين تذهبين؟ أتتركين الأرض الجميلة لترحلى إلى قصر منيف؟ هل نسيت كل شىء؟ أم لا زلت تذكرين؟ إن هناك القبر ، فهل ستبعثين إلى عالم مجهول جديد؟ أتعودين إلى حياة أشبه وعالم أحكى وأمثل إلى حجر الله ، حيث رأيت أشعة الحياة ولمست معالم الوجود . أم إنك ستفصلين من كل شىء تدب إليه يد الفناء؟ وتسير فى عروقه دماء البلاء

أستنعمين بنعاء الخلود الأبدية وتلعبين فى الجنان غير البالية؟

نعم ، هذا أملى الوحيد يا نصف حياتى . تلك هى الأمنية التى بها رأت الروح التى تضىء جوانب صدرى طرق الحياة . وكانت عزاء نفسى المتألمة التى قضى عليها بالسجن فى هذا الجسد البالى . شهدت ربيع حياتك يرحل وألوانه البهيجة تموت وتذبل ، وزهوره المتلألئة تسير نحو هوة الفناء . والحزن ما زال يفتك بى ، والموت يدير منى الخطوات وأنا أجود بالنفس الأخير ، ترتسم على شفتى الابتسامة ، وتنهمل من عينى دموع الفرح ، مقدماً إليك كلمات الوداع الأخير ، منتظراً نظراتك لتشع فى عينى قبل أن يغمضهما الموت

أولئك الذين تعلقوا بأذيال المادة ، وكانوا أشبه بالقطيع ، يسيرون وراء راعيهم « أبيقور Epicure » سيهتفون « ياله من أمل كاذب خلب قد مضى ورحل ، عند ما يرون معالم الدنيا قد قضت وانتهت

وذلك العالم الذى ما زال يفحص أسرار الطبيعة يود كتشافها ، يدرسها فى زاوية مهملة تسمى العقل . سيقطع الدهر فى فهم كنه المادة ، يعيش فى عالم الملموسات ، يغفل عن الروح ولكنهم سيهتفون به :

أيها الأحمق ، أى كبر سخيف يكسوك؟ انظر حولك! تأمل بناظريك ! كل يبتدىء لينتهى ، وكل يدب نحو الفناء دبيبه . إن سيرك نحو هدف ممثل ، وإلى غاية نهائية هي « هوة الموت »

انظر إلى الحقل وقد علت أوراقه صفرة الذبول! ألا ترى الزهرة تتعب وتضمحل ثم تلفظ الأنفاس؟ ألا تشهد فى هذه الأحراج الملتفة تلك السدرة العظيمة بجبينها الشامخ ونظراتها إلى العلياء كيف هوت تحت ثقل السنين ورزحت تحت أعباء الدهر ، ثم امتدت على العشب النضير المنتشر على بطحاء الأرض؟

ألا تنظر الأنهار تنضب فى مجاريها ، والبحار تجف فى قيعانها ، وهذا الكوكب المتلألىء فى السماء أخرت يد الزمن ولادته ، وهذه الشمس ، وما أشبهها بنا! إنها تسير الى الفناء والعدم ، وفى السماء حيث الأموات ينتظرون يوماً به ينعمون .

تأمل حواليك الطبيعة . مرت الأجيال فتكاثفت أتربتها . وتحولت الأعوام إلى ذرات غبار تناثرت فى فضائها

إن الزمن بخطوة واحدة يذل من كبريائك ، يخمد عزة نفسك ، ويطفىء جذوة اشتعالك ، يقبر فى جوفه العميق الحوادث ، ويرمس فى لحده المخيف الأيام .

ولكن الانسان ، الانسان وحده ، المجنون الأكبر فى هذا الكون! إنه ليظن أن القبور لتسعد بسكانها ، ويأمل أن يعيش الحياة ثانية فيها ، فيظفر طياتها بالحياة أثر الحياة ، ويحلم بالأبدية والخلود . وهو كريشة فى مهب زوبعة العدم الهائجة

ليجبكم غيرى ، يا عقلاء الأرض ، يا مدعى الفلسفة . اتركوا لى خطأى . فأنا أهوى فلذا آمل ، فاذا كان الخلود خطيئة لا توجد مرسومة إلا في بعض العقول دون أخرى ، فكم هذه الخطيئة عزيزة لدى!

اتركونى أيها العقلاء أنعم بجانب ضلتى ، إنى أحب أن أتمنى وأن أعلل الأشياء ، إن عقلنا الضعيف المضطرب يتحير . بلى إن عقلنا ليمسك عن الكلام أمام حججكم ، ولكن الادراك يجيبكم

أما أنا ، عند ما أرى الكواكب تسبح فى السموات العلى ، والنجوم تنحرف عن طرقها المدبرة وسبلها المقررة ، وأشهد النجم فى حقول الأثير اللانهائية يناطح النجم ، والكوكب

يركض أثر الكوكب ، فأنصت لصراخ الأرض ، واستسكن لسماع صرخاتها المتوالية تتنهد ، وقد شق جوفها ، ومادت كرتها هائمة تضطرب ، بعيدة عن السموات وشموسها . تبكى الانسان المحطم ، ابنها العانى ، المسرع فى طريق الموت الذى هام فى حقول الأبدية المظلمة ، عندها أكون الشاهد الأخير ، والحاضر الفرد ، وقد احتاطتنى المدلهمات ، وأمسك بيدى الموت إلى جوف الظلمات . وبالرغم من ضعفى سأنهض واثباً ، لا خوف يدب إلى قلبى ، ولا ذعر يمسك على فؤادى ، أفكر فيك ، أرقب بفارغ الصبر عودة الفجر الأبدى ليضىء العالم المحطم ، حيث أرقب لقاءك وأرجو زورتك

كنت تذكرين دائماً رحلتنا الهنيئة وسفرتنا الرغدة ، يوم نشأ غرامنا الخالد وبدأ حبنا المقيم ، فكنا ننعم على ذوائب الصخور القديمة التى شهدت مجد الأولين حيناً ، وحينا على ضفاف البحيرة الساكنة ، نرقب أمواجها الهادئة ، ونستمع الى أصوات مياهها العذبة ، فتحمل نفوسنا على جناح النعيم حيث نسلو العالم الصاخب .

كنت أخوض معك الظلماء التى أنتجها التفاف الأشجار ، وأسير جنبك تحت الظلال الوارفة والأفياء المنتشرة ، نهبط الربى لنصعد الجبال . لحظة سعيدة مرت أصغينا خلالها لموسيقى النجوم الغامضة ، وأصخنا بسمعنا إلى غناء الكواكب الجميل ، لاصخب يتخلله ولا ضوضاء تمسك ألحانه

كم دهشنا لهذه الصورة الجميلة التى تغطى العالم ، عدنا أدراجنا إلى المعبد ، خشعنا أمام الضوء الخافت الذى يرسل أشعة متضائلة تبعث إلى القلب الرهبة ، وإلى الأجسام الرعشة . سكرى من جمال الوجود ، كنت ترددين النظر بين الأرض والسماء ثم تهتفين :

« إله الغيب ، هذه الطبيعة مأواك ، عند ما نتأمل بنظراتنا صنع يديك ، الروح تراك متمثلا فى كل صورة من إبداعك ، فهذه الدنيا صورة كمالك : النهار نظرتك ، والجمال ابتسامتك . فى كل مكان القلب يعبدك ، والنفس ترجو أن تدب فيها الأمل وتنفخ طياتها روح العمل

« أيها الخالد اللانهائى القدير الجليل ! إن قلبى ليعجز عن وصف اسمك وكتابة حسناتك ، والروح التى حبيتها بنفختك تمجد عظمتك حتى تخمد فيها الحركة ، وتسكن بين جنباتها الخفقات

« أيها الإله القدير ! إن الروح لتخضع لحكمتك العليا وأنشودتك المثلى . تريد أن تطفر نحو علاك ، وتثب إلى سمائك . إنها لتشعر أن الحب هو ختام حياتها ، فهى تحترق لمعرفتك وتلتهب لمرآك

كذلك كنت تقولين وبهذه النفثات كنت تناجين . وقلبانا يجمعان التنهدات ، يمزجان الأنات ، يصعدان الزفرات ، يرسلانها صوب هذا الكائن العظيم الذى يدل عليه هوانا ، ويشهد لعظمته غرامنا ، نخشع بصلاتنا أمامه ، نحمل طيات قلوبنا محبته واحترامه ، يرسل إليه الفجر تخشعاتنا وتضرعاتنا ، ويرفع نحوه المساء تذللاتنا وابتهالاتنا ، وعيوننا السكرى بجمال ما صنعت يداه ، تتأمل بين الفينة والفينة الأرض حيث نفينا ، والسماء مسكنه .

أواه ! فى هذه اللحظة والروح على وشك الفرار تريد البعاد ، تود تحطيم السجن . هو ذا الإله يطل علينا من عليا سمائه ، يستجيب دعانا ، ينظر إلى شكوانا نظرة عطف تنقذ كلينا .

إن روحينا تريدان أن ترجعا إلى حيث وجدتا النور . واستشفتا الضياء . تريدان أن تقطعا معاً خضم هذا العالم إلى النهاية المحتمة ، يداً بيد ، ووجهاً إزاء وجه . حتى تصلا على جناح الحب إلى النهاية . فهى تصعد كضوء النهار إلى أن تنتهى إلى حيث الاله الخالد ، وترتمى تحت أقدامه متعانقة باكية .

هذه الأفكار : أتراها تغشنا وتخدعنا ؟

أواه ! أللعدم خلقت أرواحنا ؟ أللفناء كانت حياتنا ؟ أتشترك الروح فى مصير الجسد إلى العدم ، ويلتهمها جوف القبر الغامض كما تلتهم الضوارى اللحم ، ويضيع بين ترابها العظم ؟ أتعود إلى التراب الذى منه نشأت ، أم تطير فى الأجواء ولا تستحيل إلى هباء ؟ أم تراها تتبدد فى الفضاء ، كما تتبدد صرخات صوت قذفته عروس حسناء ؟

بعد حسرة ضائعة ، وزفرة راجعة ، وتوديعة باكية ، أترى يفنى الحب ، ويطوى الدهر فى صفحات كتابه غرامنا ؟ أواه ؟ ! إن هذا السر العظيم لا يعرف كنهه إلا أنت . ألا انظرى موت من أحبك ، الغير ، أجيبى . ردى على !

صديق شيبوب

وطنى فى عرس الحرية

للاستاذ عبد المنعم خلاف

عرش الشمس ، عليه صباح مشرق ،كله أضواء وأنداء وأغاريدُ وطوالع سعدٍ ، واستهلال مجد

يَرِفُّ فوقه علم هو رمز النمو والخصب والعلا وإقبال الأيام ، رفيفَ القلوب حوله والأجفان فيه

وعلى العرش ملك يومئ الزمن باسمه إلى تاريخ وقف ، وتاريخ أقبل . . . . وبشبابه إلى ربيع مخضر يلف بنت النيل بطيلسانه وريعانه فتنبت الورد والشوك ، والغصن والرُّمح ، للجمال والقوة . فهو ملك وكلمة من كلمات الغيب ألهِمَها « فؤاد » فوضعها فيما وضع من أعلام المجد

وأمة صهرت الفتن جوهرها نصف قرن ، فخرج صافياً غير مدخول ولا زائف ، قد « تكتل » وتجمعت ذراته ، وتضاءلت خلاياه ، ونشطت عضلاته ، ونهض فى مركزه بين مشرق الشمس ومغربها صلب العاتق كالأهرام ، رشيقا كالنيل ، رهيبا كالصحراء ، ينتظر أن يحمله الزمن رسالته الجديثة

وشعب يبدو كخلية النحل ، يعمل فى رأى مجتمع ، ونشوة بعذوبة الوحدة بعد مرارة الفرقة ، وحيرة الادلاج والسرى خمسين سنة فى مجهل السياسة ، وقد ترك على الطريق جثثا صرعى ونفوساً هلكى ، فلما عسعس الليل وملَّ الحادى وحار الدليل ، أسعفه القدر بانفلاق الاصباح وإقبال النور والهدى إلى الغاية

وتاريخ يمسك قلمه القديم الذى كتب به أولى صحائف الحضارة والعلم ليكتب صحيفة جديدة نرجو ألا ينقضى مداها ولا يأفل سناها

وأرواح حائمة من الأبوة الأمجاد تصلى فى ملكوت السموات أن يحمى رحمن العالم أرض الذرية وصلة الشرق بالغرب .

وشيوخ محنكون يضعون الأساس ويخلقون الجو الجديد للروح والجسم ، بالقلم والسيف ، للمجد والحق .

وشباب ملتهب الفؤاد مسعر الروح ، يريد أن يقيم البناء بنجوم السماء . . لايدرى ماذا يقدم من مطالب الوطنية ورغائب الحياة الجديدة ، فما يولد يوم إلا ومعه إلهام منه يتنزل على العقول بمعنى من معانى توكيد الاستقلال والتأصيل لاستكماله ، لأنه يشعر بالعظيمة التى ألقيت على كاهله فى عصر الانتقال وتغير مجرى التاريخ ، وإليه مآل الحوادث وقرار النتائج

ذلكم هو وطنى من بُعد . . أبى وأبوكم الرحيم أيها المصريون ! تشيع منه فى عينى صورة حاضرة على غيابه ، مجلوة على احتجابه ، طائفة فى المُصبَح والمُمسى ، والخلوة والجلوة

وقد شاء الله أن تعود الحرية النائية إلى ربوعه وأنا عنه بعيد ، فلم أشهد مواكبها وعُرسها على الجباه والشفاه ، ونشوتها فى الأرواح والأشباح ، وأملأ فراغى من فرح الحياة بها كما ملأته من الأسى عليها وهى حمراء دامية . . وأضحك للبلسم كما بكيت للدم !

ولى ولع برؤية الجماهير ورصدها ، وللجماعة فى أعصابى سحر . . . عجيب يجدد إيمانى بقوة الذرة إلى الذرة . إلى الصحراء ، وبالقطرة إلى القطرة . . . إلى الدأماء ، وبالانسان إلى الانسان . . إلى الدولة . فكانت مناى أن أرى الشباب الذى طالما خر إلى الأرض شهيداً يخر للأذقان ساجداً تحت رجفة من هتاف الزعيم « اسجدوا . . اسجدوا لله شكرا »

* * *

طلع الفجر يابنى أبى ! وانفجر الضوء ، فاغسلوا قلوبكم بنوره ، ونقوا ضمائركم بطهوره ، وأشيعوا معانيه فى صدوركم ، وسلطوه على أوكار الظلام والضعف والجهل ، واقتلوا به الحشرات المخربة الدنيئة . . . ثم أجمعوا أمركم لسفر طويل فى طريق وعر مملوء بالأشراك والتعاسيف والمتاهات والزحام والسعالى والغيلان . . وجثث الأمم الوانية الخطى ، الخرقاء التدبير ، المتخاذلة القوى ، المفرقة الهوى . . . طريق المجد ! !

وقبل السير قفوا وتلفتوا إلى الخلف ، وسرحوا الأبصار فى معالمه ، وتذكروا أغلاط الماضى واستوحوا هداه وعبره ، فان ذلك أحرى أن يطرد معه السير على الجادة دون انحراف إلى بنيات الطريق

بغداد عبد المنعم خلاف

حول رأيين فى

الوحدة الاسلامية

للأستاذ حسين مروة

لنكاد نلمس اليوم فى مظاهر الحركة الاصلاحية القائمة فى ديار الاسلام وأمة القرآن الكريم — اتجاها جديدا يغتبط به كل مسلم يستشعر فى نفسه الايمان الحق، ومظهرا مباركا يرتاح إليه كل موحد يحمل فى صدره عاطفة الخير الصريح، وإننا - إلى اغتباطنا بهذا الاتجاه - لنزداد طمأنينة إليه إذ نتلمس بين عوامله وأسبابه عامل النضج الفكرى وفهم الحقائق المستوحاة من ملابسات الحياة وروحية الدين الاسلامى الحنيف. وإننا لنذهب فى طمأنينتنا واغتباطنا هذين مذهباً أبعد مدى، إذ نشهد بين العاملين على هذا الاتجاه طائفة رجال الدين التى يرى كثير من المشتغلين فى هذا الحقل أنها السبب الأول فى إخفاق الحركات الاصلاحية التى نشأت فى الأعوام المتأخرة لتوحيد كلمة الأمة الاسلامية وجمع رأيها الشتيت ورتق ما فتق التاريخ من مجدها السنى وعزها الرفيع.

وفى الحق أن طائفة رجال الدين هذه كانت فى عصور التاريخ الاسلامى الأولى هى العنصر الصحيح الذى عمل للاسلام أكثر مما عملته العناصر الأخرى، إذ بينما كانت هذه العناصر تحمل المعاول لهدم صروح الوحدة الاسلامية الشامخة — كان علماء الدين يجلسون إلى القرآن والحديث الشريفين يستوحونهما حقائق الدين: ويستهدون بنورهما المبين إلى حل المشكلات وتوضيح الغامضات، يجتمعون على ذلك فيما بينهم وإن باعدت المذاهب بين صفوفهم، ويتواصلون تواصل الأرحام، وإن حاولت أهواء السياسة أن تنثر جماعاتهم نثراً وأن تستغل بساطتهم البريئة استغلالا، وأن تستثير حفائظهم الدينية لتأييد أغراضها، فتراهم — على هذا كله ينصرفون عما حولهم من شؤون إلى دراسة، أو تدريس، أو تأليف، أو مناظرة علمية مهذبة الحواشى طاهرة المقاصد موطأة الأكناف بالسماحة الرحبة والتساهل العذب وأدب البحث النزيه. وإذا كنت ترى فى مخلفات هذه الطائفة فى عصورها تلك من المؤلفات والدراسات مالا يدل على شيء من هذا الذى نقول — فانما هو النادر الذى لا يصح القياس به، أو هو مما ألحت عليه السياسة باسبابها ونوازعها الأثيمة. وهكذا كانت السياسة تلحف بالتنقص من أطراف الوحدة، وتلح فى تبديد الشمل، وتجهد فى تضييع الخلق العلمى السمح، واستئصال هذه البقية الكريمة من تراث العصر الأول للاسلام — حتى انثال رجال الدين إلى السياسة، وانهال العلماء على الدنيا، وكان ما كان من هذه الطرائق المبعثرة، وهذه الأهواء المتدافعة، وهذه الدنيا الاسلامية المليئة بالأحداث الجسام والنوازل المروعة الفادحة

وعفا الله عن رجال الدين هؤلاء ومن خلف من بعدهم إلى يوم المسلمين هذا، فلقد سايروا أهل المطامع، وكانوا معهم إلبا على الدين من حيث لا يشعرون، وكانوا لهم عونا على الاثم من حيث هم غافلون، ونحن لا نشك فى أن أصحاب الرأى القائل بأن علماء الدين قد عرقلوا سير الاصلاح فى الاسلام — على شيء من الحق، وإن لم يكونوا على الحق جميعه فيما نرى، لأن تخلف هؤلاء عن قافلة رجال الاصلاح الذين قطعوا شوطاً فى هذا المضمار — ليس هو السبب — كما يرون — فى إخفاق الحركات الاصلاحية التى قامت فى هذه الأمة إلى اليوم، لأننا لا نعتقد أن سلطة رجال «الاكليروس» الاسلامى تتناول هذا المدى من التأثير فى سير الأمور العامة فى دنيا المسلمين، ولعلنا لا نزيغ عن الحق إذا قلنا لأصحاب هذا الرأى إن السبب الأول فى فشل المصلحين يرجع إلى عاملين اثنين: أحدهما — كاتبوا التاريخ الاسلامى أنفسهم الذين أمعنوا كثيراً — علم الله — فى تملق السياسة ومجاراة أهواء النفوس من أى حزب كان هؤلاء ومن أى شيعة ولون، جعلوا تاريخنا مثارا للعنزازات وموقظا للنعرات كلما شاء الزمان أى يبدلنا بشرنا خيراً، وبفرقتنا اجتماعاً، وشر البلية فى هؤلاء أننا مرغمون على قراءتهم فما الحيلة إذن؟. ترى هل يعمد القائمون على فكرة الاصلاح إلى ما كتب المؤرخون عن عصور القلق الاسلامى فيقطعون ألسنتهم فيما يتحدثون به إلينا من فضول الاحاديث؟.

وأما العامل الثانى فليس فى قراء «الرسالة» الكريمة - كما نعتقد - من يجهله، أو ليس هو «الغرب» الغازى ... المظفر ...، ويعلم القراء ما وراء هذا من شجون الحديث وشؤونه الرائعات.

هذان ما نعتقد أنهما السبب الأول فى تمزيق شمل المسلمين. واذا كان لرجال الدين من أثر بعد هذا، فذلك هو استسلامهم إلى هذين العاملين استسلاماً ساذجاً أخرق، ولا نقول عنه إلا ذلك...

ونعود الآن لنقول ثانية: إن هذا الاتجاه الحادث فى دفة الحركة الاصلاحية، يزيد فى اطمئناننا إليه أن بين عوامله وأسبابه فهم أولى الشأن من طوائف المسلمين حقائق الحياة المحدقة بهم وأسرار الروحية الاسلامية السمحاء، وأن فى صف العاملين عليه طائفة رجال الدين، ورجال الدين هؤلاء المساهمون فى هذا الاتجاه ليسوا من الازهر الشريف وحده، وليسوا من النجف المقدس وحده، ولكن المعهدين الشقيقين كليهما يمدان الفكرة الجليلة المنشودة: «الوحدة الاسلامية» بروح منهما وبسبب من عندهما بليغى الأثر، كريمى العنصر، طيبى المنبت، وها هى دار «الكنانة» العزيزة، زعيمة هذه الفكرة المثلى وحاملة المشعل المقدس اليوم قد شهدت منذ أيام عالما جليلا من علماء النجف يحاضر فى دار جمعية الشبان المسلمين فى موضوع «الوحدة الاسلامية» بروح من التسامح جليل البادرة، ويجتمع إلى عظماء البلد الاسلامى الكريم يحادثهما حول هذا الشأن فيلقى فى رجال العرش المؤثل الرفيع كل العطف، ويشهد فى أوساط الأزهر العظيم

أبلغ المثل على نضج الفكرة ، وبأنس من علية البلد وزعمائه الأبرار ومن حملة العلم والقلم ورجالَ الفكر فيه - ألمع الدلائل على قرب اليوم السعيد ، إذ يصبح المسلمون إخوانا كأنهم البنيان المرصوص تظلهم جميعاً راية التوحيد العليا .

ولكننا - ونحن نعرض لهذا كله - نرى من واجبنا أن نقول كلمة فى مرحلة ثانية للموضوع ، وهى التى أردناها أول ما أردنا أن نكتب فى هذا الباب ، ذلك أن للموضوع مرحلتين : أولاهما - حاجة الأمة الاسلامية إلى الوحدة الشاملة الكبرى ، وهذه قد فرغ الباحثون من التدليل عليها ، ووضعها فى ميزانها الصحيح، وفرغ كذلك المصلحون من عقد الضمائر على الايمان بها وجعلها مثلا أسمى تستهدفه النفوس ، وتستهون فى سبيله الجهود . والمرحلة الثانية هى : قضية العوامل والأسباب الأقرب أثراً وأعظم فعلا فى تحقيق هذه الأمنية الغالية والمثل الرفيع .

هذه المرحلة الثانية قال الكاتبون والمصلحون فيها ما شاؤا ، ولقد طلع على العالم الاسلامى منذ أعوام بعيدة أو قريبة ، رأى بهذا الشأن عرفه السوريون أكثر من غيرهم ، إذ نشأ - أول ما نشا - فى ديارهم ، ويقول أصحاب هذا الرأى إن الخلافات المذهبية - ولا سيما بين طائفتى السنة والشيعة - هى مصدر الفرقة ، وهى مصدر البلاء والشقاء ، وإذن فلنعمد إلى قلع هذا الوباء من أصله ، ونجذه من جذوره ، بان نجمع المسلمين كافة على مذهب واحد يستخلص من مجموعة هذه المذاهب على ضوء القرآن والحديث ، ولكن هذا الرأى لم يكد يظهر حتى اختنق دون أن يثير وراءه جدلا ولا بحثا ، ودون أن يترك بعده صوتا لنادب عليه أو شامت به ؛ وهاهو ذا اليوم يظهر ثانية على لسان سماحة العلامة الزنجانى - ومن النجف كذلك - ، فاذا هو يلقى هذه المرة فى مصر وفى ديار الشام غير ما لقى أول مرة ، وإذا هو موضوع بحث وعناية من العلماء ورجال الفكر وأولى الشأن الجليل فى القطرين الشقيقين . وبينا نفكر فى إدلاء دلونا بين الآراء فى الموضوع وإذا « الرسالة » الرفيعة تطلع علينا فنستقبلها بالنهمة الروحية التى نستقبلها بها فى كل مرة ، ونقف - أثناء سبرها - على مقال جليل للاستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى الموضوع نفسه وبعنوان : « الوحدة الاسلامية » وللاستاذ حرمة فى النفس حملتنا على أن نجمع الفكر إلى مقاله ، فاذا هو يقول فيه ما كنا نحاول أن نقول فى الموضوع قبل ذلك ، وها نتقدم إلى « الرسالة » الغراء بهذه الكلمة العاجلة تأييداً لرأى الأستاذ الصعيدى الذى تفرد به بين من عرضوا لهذا « المشروع » بشىء من القول :

فى الحق - ياسيدى الأستاذ - أن محاولة توحيد المسلمين عن هذا الطريق الذى يقولون ، لهى - شهد الله - عامل جديد على توسيع شقة الخلف بينهم ، وتهديد هذا الكيان الحاضر - على هزاله - بالاضطراب فالاضمحلال .

ليس هذا أوان التلبيس والابهام ونحن نبحث أمراً حيويا له خطره ، وله عواقبه الجليلة ونتائجه المرموقة ، فلنقل - إذن - بصراحة : إن خلاف الطائفتين فى أصول العقائد حقيق ، وليس هو - كما قالوا - ظاهرى قشرى يستطاع « تصفيته » فى اجتماع أو مؤتمر أو ما يشبه هذا . ولنقل كذلك - بمثل هذه الصراحة - : ان من العسير ، بل من المتعذر ، أن نحمل أية من هذه الطوائف على التزحزح عن مبدأ واحد من مبادئها أو أصل واحد من أصولها - قيد شعرة ، بعد أن أصبحت هذه المبادىء والأصول عقيدة فى العقائد . ولا نظن السادة أصحاب هذا الرأى يجهلون أن العقيدة جزء من كيان المرء لا ينفك عنه ما دام كيانا ينسب إليه ويتميز به ، ونظننا فى غنى عن التبسط بهذه الناحية، وفى مباحث العلوم النفسية والاجتماعية وفى منطق الواقع نفسه مايغنى عن التبسط والتدليل

ولنفرض - جدلا - أن اجتمع نخبة من علماء كل طائفة ، وتجرد هؤلاء عن اعتبارات المذهب ، وموحيات العقيدة ، وبحثوا الأمر بحثاً علمياً صريحاً مستهدين بروح الاسلام الأعلى ومبدأ القرآن الأول ، ثم أقروا جملة من المبادىء والأصول قد تكون مزيجاً من مذاهب شتى وقد تميل إلى مذهب دون مذهب - لنفرض هذا كله ، ولنجعله بمكان من الاعتبار الصحيح ، ولكن من يضمن لنا هذه الدهماء أن تتنازل عن عقائدها لقاء ما يقول لها العلماء ، هكذا قضى البحث وقواعد العلم ، وهكذا تشاء مصلحة الاسلام . أو أن تتقبل هذا المذهب « الجديد » بطمأنينة ورضا واقتناع ، ومن يضمن لنا كذلك هذا التاريخ الأرعن أن يوقظ النعرات من جديد فنستهدف مشكلة جديدة ونضيف إلى هذه المجموعة « الضخمة » من المذاهب مذهباً جديداً ، أو قل : عاملا جديداً على صدع الصف وخلق الفوضى التى نحاول أن نبيدها من الوجود ؟ .

لا . لقد جاء الأستاذ الصعيدى - حفظه الله - بالحق إذ نحا غير هذا المنحى فى سبيل الاصلاح وجمع الشمل . ولقد نحونا مثل هذا كذلك فى مقالات نشرتها جريدة « الهاتف » النجفية ناشدنا فيها هيئة العلماء العليا فى النجف أن يعتبروا هذه الخلافات فى أصول العقائد بين المذاهب الاسلامية ، كما يعتبرون هذه الخلافات فى الفروع بين مجتهدى المذهب الواحد ، وأن تمد مدرسة النجف يدها إلى شقيقتها الكبرى مدرسة الأزهر ، وأن يتبادل المعهدان الكريمان البعوث العلمية ويوحدا مناهج التعلم فيها وأن يشتركا فى الرأى كلما حدث فى الاسلام حدث من إصلاح أو تثقيف ، أو تأليف ، أو تأسيس الخ .

هذه هى الخطة المثلى التى نرجو أن يعتبرها المصلحون من علماء الطائفتين قاعدة لأعمالهم فى سبيل الوحدة الاسلامية المنشودة . وإننا لنرجو أن يكون لنا فى هذا الاتجاه الاصلاحى الجديد - سبب أى سبب فى تحقيق هذه الأمنية الحبيبة .

وأنا أرجو - فى ختام كلمتى - أن أحقق أمنية تعتلج بالصدر فى أن أشد الرحال فى اليوم القريب إن شاء الله إلى الأزهر العظيم رجاء أن نشق الطريق إلى تواصل الأرحام بين المعهدين الشقيقين ، وتحقيقاً لمقترح الأستاذ الصعيدى الكريم ، والله ولى الأمر ؟

حسين مروه

دعابة الجاحظ

بقلم محمد فهمي عبد اللطيف

كان أبو عثمان الجاحظ لوقته شيخ الأدب، ونخر العرب، جمع بين اللسان والقلم، وبين الفطنة والعلم، وبين الرأى والأدب، وبين النثر والنظم، وبين الذكاء والفهم، إن تكلم حكى سحبان فى البلاغة، وإن ناظر ضارع النظام فى الجدل[1]، وكان إلى جانب هذا كله ظريفاً مرح النفس، يحرص على النادرة ويحتفل بها، ولو كان فيها ما ينال من شخصه، ويمسه فى سمته. ولما كان الأدباء قد أكثروا القول عن الجاحظ فى أدبه وفنه، وعلمه وتحقيقه واقتداره على الكلام والجدل، فقد رأينا أن ننظر إليه فى دعابته ومرحه؛ وإنها الناحية للباحث فيها مراد ومنزع، وللقارىء منها متاع ولذة. ولعل من الخير قبل الأمعان فى البحث أن ندحض وهماً يقوم فى رؤوس بعض الناس إذ نجدهم ينكرون ذلك على الجاحظ وأضراب الجاحظ، لأن كرامة الأديب أو العالم فى رأيهم أكبر من أن تكون مصدر عبث ومجانة، وأرفع من أن تبتذل فى الضحك والتنادر، وقديماً قيل: ليس لمزاح مروءة، ولا لممار خلة. ولقد رأيت ابن قتيبة لما أراد أن يثلم الجاحظ لم يدخل عليه إلا من هذه الجهة إذ قال: إنه كان يقصد فى كتبه لمضاحيك والعبث. وفات هؤلاء الناس أن الانسان حيوان ضاحك باك بطبعه، وأن الله قد خلق فيه الضحك قوة تعينه على استساغة هذه الحياة المريرة، كما خلق فيه البكاء قوة تقف به موقف العظة والاعتبار. وقد روى فيما روى عن الحسن البصرى أنه قال: حادثوا هذه القلوب فأنها سريعة الدثور، وارعوا هذه الأنفس فانها طلعة، وإنكم إن لم ترعوها تنزع بكم إلى شر غاية!! ومما جاء فى التاريخ أن عبد الله بن طاهر جلس مجلسا أنصف فيه من وجوه القواد، وأمراء الأجناد، وضرب الأعناق، وقطع الأيدى، وردّ كبار المظالم، ثم قام وقد دلكت الشمس، فتلقاه الخدم، فأخذ هذا سيفه، وهذا قباءه، وهذا إزاره، فلما دخل دعا بنعل رقيقة فلبسها ثم رفع ثوبه على عاتقه وتوجه نحو البستان وهو يتغنى:

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عنم

قال عيسى بن يزيد: وكنت جريئا عليه، فجذبت ثوبه من عاتقه وقلت له: أتقعد بالغداة قعود كسرى وقيصر، ثم تعمل الساعة عمل علوية ومخارق؟! فردّ ثوبه على عاتقه وهو يقول:

لابد للنفس ان كانت مصرفة من أن تنقل من حال إلى حال

ومن أولى - رعاك الله - بأن يصرّف نفسه من حال إلى حال، ومن أحق بالاسترواح والانشراح من ذلك العالم أو الأديب الذى يصهر ذهنه فى خدمة الانسانية، كالذبالة تضىء للناس وهي تحترق؟ وهل هو يفعل فى ذلك إلا ما تقضى به إنسانيته، وتدفعه إليه طبيعته؟ فاذا طاب لنا أن نقف بهذا وأمثاله موقف التزمت والوقار فى كل فترة من فتراتهم، فنحن فى الواقع نجردهم من نصف إنسانيتهم ونعطل فيهم قوة خلقها الله لهم مباءة للرفاهية والراحة، بل نحن نبقى لهم حياة هى الكرب الآخذ بالخناق، والجحيم الذى لا يطاق. وإنى لأعجب لبعض الناس أن تطرق إلى عقولهم تلك العقيدة الغريبة وهى أن حياة الأبرار فى الجنة، أرفع وأشرف من أن يدخلها الضحك، ويكون فيها التنادر. ولقد رأيت كثيرا من هؤلاء يهيئون نفوسهم فى هذه الحياة الدنيا لاستقبال تلك العيشة العابسة التى يزعمونها فى دار النعيم، فهم يطردون من صدورهم كل ميل إلى السرور والانشراح، ويكشحون عن صحائف وجوههم كل لمحة من سنا البشر والطلاقة. وكثيرا ما أصادف فى غدواتى أحد هؤلاء العابسين فينظر إلى كمن عرفنى نظرة موحشة شزرة، كأنما هو قاض سماوى قد هبط إلى هذا العالم ليحكم بأقصى العقوبة على كل من يعرف، ومثل هذا الرجل يقطع ولا شك ذنب هرّته اذا هو صادفها تعبث به، فبالله سله من علّم الهرة أن تعبث بذنبها؟!.»[1]

هذا وللجاحظ فى هذا المعنى كلام حسن هو من أقوم ما قيل فى بابه، وأدق ما أتى فى معناه، وإنما ساق الرجل الحديث فى ذلك وهو ينضح عن نفسه، ويدحض شبهة كالتى نعالجها، إذ

---

(١) من تقريظ التوحيدى للجاحظ.

(١) هذه النبذة من كتاب «حديث المائدة» للكاتب الأمريكى هولمز وقد اعتمدنا على ترجمة الأستاذ السباعى

خاف ـ وهو العالم الأديب ـ أن يتهم بالنزق والسفه من أجل مايستروح به من المزح والفكاهة ، وبسوقه من الطرف والتنادر . والظاهر أن مسألة الجد والمزاح كانت من المسائل التى شغلت الأذهان فى عصر الجاحظ ، فكثر حولها القول ، وطال فيها الخلف والتضارب ، وما كان ذلك إلا نتيجة لازمة لتلك الحياة الفكرية التى كان عليها القوم ، وهى حياة مضطربة لم تأخذ وضعها من الاستقرار بعد ، ولم تكن قد خلصت من شوائب الأخذ والرد ، فهناك علماء الفقه والسنة ما زالوا يتلمسون نصوص الشريعة يطبقونها على ما أمامهم من مظاهر وظواهر ، وتبيان ما هو حلال منها وما هو حرام ، وإلى جانب هؤلاء جماعة يتولون الوعظ بأحوال السابقين ، والزجر بالقصص والآثار ، وإن فيهم من لا يتورع عن التزيد والافتراء ، والحشو والكذب ، لتأييد أمر له فيه غرض ومأرب . وثمت عناصر فارسية من الشعراء والأدباء لا يتحرجون من اقتحام الدين والخروج على الأوضاع ، فكل همهم اشباع الجسد ، وامتاع القلب ، وفيهم من يذهب فى التظرف مذاهب ، فكان من الطبيعى أن تقوم مسألة « المزاح » عند كل فريق من هؤلاء باعتبار ، وأن يجرى فيها القول على خلاف ، إذ لكل هوى ومنزع ، وقد عرض الجاحظ أقوالهم أجمل عرض فقال : « وقد ذهب الناس فى المزاح إلى معان متضادة ، وسلكوا منه فى طرق مختلفة ، فزعم بعضهم أن جميع المزاح خير من جميع الجد ، وزعم آخرون أن الخير والشر عليهما مقسومان ، وأن الحمد والذم بينهما نصفان » وبعد أن أتى الجاحظ على جمل هذه الأقاويل أخذ فى إعلان رأيه فقال : « ونحن نعوذ بالله أن نجعل المزح فى الجملة ، كالجد فى الجملة ، بل نزعم أن بعض المزح خير من بعض الجد ، وعامة الجد خير من عامة المزح ، وقد يكون الكلام فى لفظ الجد ومعناه معنى الهزل ، كما يكون فى لفظ الهزل ومعناه معنى الجد ، ولو استعمل الناس الدعابة فى كل حال ، والجد فى كل مقال ، وتركوا التسجيح والتسهيل ، وعقدوا أعناقهم فى كل دقيق وجليل ، لكان السفه صراحاً خيراً لهم ، والباطل محضا أردّ عليهم ، ولكن لكل شىء قدر ، ولكل حال شكل ، فالضحك فى موضعه ، كالبكاء فى موضعه ، وكذلك التبسم والقطوب ، والمنع والبذل ، فأن ذممنا المزاح ففيه لعمرى مايذم ، وإن حمدناه ففيه مايحمد ، وفصل ما بينه وبين الجد أن الخطأ إلى المزاح أسرع ، وحاله بحال السخف أشبه ، فأما أن يذم حتى يكون كالظلم ، وينفى حتى يصير كالغدر فلا ، لأن المزاح مما يكون مرة قبيحا ومرة حسنا ، ولا يكون الظلم الا قبيحا ، وبعد : فمن حرّم المزاح وهو شعبة من شعب السهولة ، وفرع من فروع الطلاقة ، وقد أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة ، ولم يأتنا بالانقباض والقسوة (١) » .

ولا شك أن الجاحظ فى رأيه هذا قد وقف موقف العدل والانصاف ، وقال قولا هو غاية القصد . ولقد أحسن الرجل كثيراً إذ راعى « المقام » فى حكومته بين الجد والمزاح ، فقال بأن « لكل شىء قدر ، ولكل حال شكل ، فالضحك فى موضعه ، كالبكاء فى موضعه ، وكذلك التبسم والقطوب ، والمنع والبذل » نقول : بل وكذلك كل شأن من شؤون هذه الحياة ، وما أحسب أحداً فى الناس يجهل أن وضع الندى فى موضع السيف مضر ، كوضع السيف فى موضع الندى ؛ ولكن قل فى الناس من يتعرف الوضع المناسب ، ويتبين المقام المشاكل ، وما ذلك فى الواقع الامسبار الذكاء ، ومحك البراعة ، وهل التنادر يقوم الا على قوة المفارقات ، والتميز بين المناسبات ؟ وهل الرجل الذى يلقى بالنادرة فى موقف العظة والاعتبار ، أو يخلق الضحكة ينطلق بها فمه بين مظاهر الأسى والحزن ، ألا نزق طائش ، بل قل سفيه لا يحس بالواجب ، ولا يقدر العواقب ، وسرعان ما ترمقه العيون بالنظر الشزر ، ويقعد فى الجالسين مقعد الثقيل المملول ، وربما كانت نادرته حلوة رائعة ، وضحكته رقيقة حسنة ، ولكنه ألقى بها فى المقام الكز ، واختار لها الموقف الخشن !!

ولا عاب فى المزح عند الجاحظ إلا أن الخطأ اليه أسرع ، وحاله بحال السخف أشبه ، ومن ثم فهو يرى أن من الصون للأديب أو العالم أن يكون فيه على قصد ، وأن يعالجه على قدر ، هو قدر الاستروح والانشراح . ولقد أوضح هذه الناحية اذ يقول : « والمزاح باب ليس المخوف فيه التقصير ، ولا يكون الخطأ فيه من جهة النقصان ، وهو باب متى فتحه فاتح ، وطرق له مطرق ، لم يملك من سده مثل الذى يملك من فتحه ولا يخرج منه بقدر ما كان قدم فى نفسه ، لأنه أصل بنائه على الخطأ ،

(١) رسالة التربيع والتدوير ص ١١٤ من رسائل الجاحظ .

ولا يخالطه من الأخلاق الا ما سخف ، ومن شأنه التزيد ، وأن يكون صاحبه قليل التحفظ ، ولم نر شيئاً أبعد من شيء ولا أطول له صحبة . . ، من الجد والمزاح ، والمناظرة والمراء (٢) . . . »

وهذا كلام يتفق فيه الجاحظ هو وصاحب حديث المائدة ، إذ يقول فى كلام له عن الجد والمزاح « أنا لا أمقت منكم ميلكم إلى الضحك ، ولا أضن عليكم بالكلمة تضحككم متى قدرنى الله على ذلك ، فأما أن تطلبوا إلىّ ألا أقول إلا ما يضحك ، وإلى أنفسكم ألا تفعل شيئاً غير الضحك ، فذاك مخالف لسنة الطبيعة ، وجدير بمن هذا شأنه أن ينقلب قرداً لتوّه وساعته . . . ولذا كان من البلية على الكاتب أو الشاعر أن يسترسل فى باب المضحك ، فانه يعوّد الناس بذلك ألا ينتظروا منه إلا ما يضحك وألا يعرفوه إلا مزاحاً ، فهم يضحكون معه ما دام يضحكهم ، فاذا أراد أن يجد وشرع ينطق بالعلم والحكمة ضحكوا منه وهزئوا به » . ثم ينظر صاحب حديث المائدة إلى الموضوع من ناحية لم يتمعنها الجاحظ فيقول : « على أن هناك سبباً أغمض من ذلك ، ألا تشعر أنك ترى نفسك فوق كل إنسان يتصدى لأضحاكك ، سواء بحركات جسده أو بحركات قلمه ؟ بل ألا تشعر بأنك تفيض عليه من برك وإحسانك إذ تمن عليه بتقبلك منه الوثبات الحقيقية أو الشعرية !! . فاذا لزم أدبه ، ووقف عند حده نخيراً يفعل ، وإذا حاول أن يعلو إلى مقامك الرفيع ، فأخذ يدلى اليك من منبر عظته نوابغ الحكم . فبئس ما صنع ، وساء ما أتى ، وهيهات أن يقوم عندك مقام الواعظ ، أو يفوز منك بنظرة الاجلال التى هو جدير بها لعلمه وأدبه ! (١) » .

وما كان الجاحظ من الدعابة والمزح ، إلا فى ذلك المقام الكريم الذى اتفق عليه هو وصاحب حديث المائدة ، فتجده يستروح بالنادرة ، ويتفكه بالدعابة ، ولا يضن على السامر بالكلمة تصفق لها القلوب ، وترتاح لها النفوس . وإنه فى ابحاثه وكتاباته ليبتدع النكتة ابتداعاً ، ويحتفل بالنادرة يسوقها إلى القارىء ، ولكن كل هذا فى المقام المناسب ، وعلى القدر اللازم ، فما تعدى طوره ، ولا خرج عن قدره ، ولا استذل كرامته بالتزيد والامعان فى المجانة . وإذا كان ابن قتيبة قد عاب الجاحظ بالعبث والضحك ، فما ابن قتيبة إلا مسرف فى هذا الاتهام ، وإنه ليطعن الجاحظ فى غير مطعن ، بل إنه ليريد أن ينكر على الرجل طبيعته البشرية ، وكأنه كان يحمل له ضغناً ، ولماذا ينكر ابن قتيبة على الجاحظ ما استباحه هو لنفسه فى عيون الأخبار من سرد المضاحيك والمعائب ، حتى ليقول فى مقدمة ذلك الكتاب بلهجة صريحة : « وسينتهى كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما روى عن الأشراف والأئمة فيهما ، فاذا مر بك أيها المتزمت حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له ، فاعرف المذهب فيه وما أردنا به ، واعلم أنك إن كنت مستغنياً عنه بتنسّكك ، فان غيرك ممن يترخص فيما تشدّدت فيه محتاج إليه ، وإن الكتاب لم يعمل لك دون غيرك ، فيهيأ على ظاهر محبتك ! ولو وقع فيه توقى المتزمتين لذهب شطر بهائه وشطر مائه ، ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل عليه معك ... » ، وأحب أن يتأمل القارىء قوله — شطر بهائه وشطر مائه — فياليت شعرى إذا كان توقى المزاح والفكاهة سيذهب بالبهاء والماء ، فماذا يبقى بعد ! ؟ »

« للكلام صلة »

محمد فهمى عبد اللطيف

(٢) التربيع والتدوير للجاحظ .

(١) حديث المائدة تعريب السباعى فى البيان .

جولات فى الأدب الافرنسى الحديث

تطور الحركة الأدبية

فى فرنسا الحديثة

لأستاذ الأدب فى جامعة السربون ، دانيال مورنى ، Daniel Mornet

بقلم الأستاذ خليل هنداوى

« فصول ملخصة من كتاب تاريخ الأدب والعقل الفرنسى الحديث لاستاذ الآداب فى جامعة السوربون ، دانيال مورنى ، تبحث تطور الشعر والرواية والنقد والتاريخ والفلسفة ، (١) ودانيال مورنى أستاذ له مدرسته التحليلية وطريقته الادبية التى يفرضها على آداب أمته فى هذا الجيل ؛ وهو مؤرخ للأدب بطريقة خاصة يكاد يكون بها نسيج وحده . تقرأ كتبه ومقالاته فتشعر باطلاع واسع عميق وجهد كبير وفكر عال استطاع أن يقرأ ويفيد ويحلل فتأخذ منه ما اوجزه فاذا به يخفى طى سطوره القليلة ما يغنى !

يكتب بأسلوب سهل كتابة يغلب عليها الاسلوب الأدبي طورا والاسلوب التحليلى تارة ، وهو فى كل ذلك حى تجري حياة الفكر فيه ، يكتب عن المدرسة الادبية أوحياة الاديب صفحة اوصفحتين ويقف وإنك لراغب فى الزيادة ؛ ولكن وقوفه هو الحاجز الذى يجب ان يقف عنده . ولن يمضي زمن حتى ينشأ هذا الاسلوب الموجز فى تحليل الادب وتبيين مواقفه الحاسمة . واشهر كتبه المنشورة تاريخ شامل للأدب الفرنسى قديمه وحديثه . وتاريخ لمراحل خاصة للعقل الفرنسى وقد احببت ان ادرس هذا الكتاب لانه درس شامل لعقل وادب . لا يذهب وراء الخيال كثيرا كأنه كل شيء ، ولا ينطلق وراء العقل كثيراً كأنه كل شيء . . . لأن صاحبه يرى التأثير متبادلا بينهما ، ففيه نرى تأثير العلم فى تطور الادب وتأثير الادب فى الفلسفة . وفيه يرى أصحابنا تأثير النظريات الفنية والعلمية فى توجيه الأدب ؟ « خ ، ه »

رقية العلم عام ١٨٨٠

لم تبلغ العلوم الطبيعية من الذيوع والقوة مابلغته فى أواخر القرن التاسع عشر . فإن أهم اكتشافاتها ومخترعاتها إنما تمت فى عهد قبل عهد الأواخر . فكتاب « داروين » مثلا عن أصل الأنواع إنما ظهرعام ١٨٥٩ وكذلك فى الأعوام الأخيرة نشأت اكتشافات جديدة غمرت الأرض وألقت فى أخلادهم أن العلم قادر على تبديل الحياة الاجتماعية وغير عاجز عن تغيير الحياة ذاتها . وساعدت على نشر هذا الاعتقاد الانتصارات المتتالية فى كل ميادين العلم . ولم يقبل عام السبعين حتى ازداد هذا الاعتقاد عنفا ورسوخاً حتى اعتنقه بعضهم كما يعتنق ديناً . على أن الناظر لا يرى خلقا جديداً فى مذاهب العلم وأساليبه وأصوله ، ولكن غير العلماء كانوا يتحرون فى أصوله عن النور الذى ينبغى له أن ينير مسالك الحياة الاجتماعية والحياة الخاصة وما قدر لها . فـ « رينان وتين » قد جمعت آثارهما قبل عام السبعين ولكن الشباب لم يتخذ منهما قائدين إلا بعد هذا العام . وهكذا انتشر سلطان العلم وغلب على كل سلطان وطغى على الأدب وأصبح موضع الأنظار . وأعلن أحد رسل العلم « برتلو » بعد اكتشافه فى الكيمياء مذهب تأليف الأجزاء المتفرقة بأنه بواسطة هذا المذهب يستطيع إنسان الغد أن يصبح المسيطر على عالم الأجساد والنفوس . فهو يضع غذاءه ويخلق عصور الرفاهية التى تتجلى فيها المساواة والاخاء إزاء شريعة العمل المقدسة . كل شيء سجله العلم ويخلقه خلقا جديداً . وكذلك شأن الأخلاق يدركها هذا التطور الذى أدرك الطبيعة

كل شيء فى الحقيقة ينتظم ليخضع كل فكرة إنسانية لقوانين العلم . وقد كان علم طبقات الأرض وعلم الآثار القديمة والتوسع فيها كانا ذائعين فى القرن الثامن عشر قبل أن تتفجر عن العلم اكتشافاته وتزداد حركته . وهنالك مجامع كثيرة قامت ومدارس نشأت تطلب أن تقيم الدراسة المحض للحقائق بدلا من الركض وراء الخطرات الخيالية اللامعة على غير جدوى . ولكن هذه المطالب كانت لا تزال تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فيها تردد غير المطمئن وشك غير المؤمن . فبقى التعليم وجامعاته والنقد وحركاته أمينة لمذاهب الأدب القديمة التى تعتمد على الذوق والذهاب إلى إحياء فن الأوائل بالخيال ، حتى بزغ عام السبعين فبدأت الأذواق تنفر من هذه الأخيلة . ودعا الأدباء الى اعتناق علم « الالمان » الذين ربحوا الحرب ، ليكون منهم علماء فى دراسة اللغات ومؤرخون وأساتذة ، وأن تكون دراساتهم مرتكزة على بحث الحقائق وتجريدها ونقدها نقداً علمياً . وقد طغت هذه الدعوة العنيفة على جامعات فرنسا وغزت مجامعها الأدبية . فتغير الأسلوب وتبدلت المناهج ، ونرى أثر ذلك فى

(١) حقوق التعريب والنشر باذن المؤلف

مدرسة (أثينا) الفرنسية التي أخذت تنهج في الدرس نهجاً حديثاً، وفي بقية مدارس أنشئت لهذه الغاية كمدرسة (روما) ومدرسة القاهرة ، وفي بعض مجلات علمية أنشئت لتعمل على تشجيع هذا المذهب الجديد !

وقد سرى هذا الارتجاج الى الفلسفة فخالت أن العلم يبدل منهجها . وبدا أثر هذا الارتجاج في الدراسات النفسية التي كانت تعتمد على الدرس الباطني فبدل نوع هذا الدرس وجاءوا بعلم جديد لدرس النفس لا يعتمد الا على الفحص والتجريب والبرهان. وخزانة الفلسفة الفرنسية لا تزال طافحة بهذا النوع الجديد من الدرس كآثار الفيلسوف « ريبو » في معالجة أمراض الذاكرة والارادة والشخصية . وكلها أبحاث قائمة على الفحص العلمي والبرهان العملي الذي لا مجال للخيال فيه وهي تثبت أن أصول علم النفس الروحاني لا تتلاءم مع الأعمال، وأننا بدرسنا - علمياً - لفساد المادة الدماغية ندرس كذلك فساد الفكرة التي لا بد أنها مظهر من مظاهرها وأثر من تأثيرها .

أما علم درس المجتمعات فهو لا يشبه العلم فحسب ، بل يجب أن يكون علماً صارماً في تطبيق مبادئه وفي تطبيق نتائجه ، كما هو الحال في علوم الطبيعة . ولم ينشأ هذا العلم في فرنسا الا بعد عهد ، ولكن هذا لا يمكن أن يكون وليد المذاهب العقلية . وإنه علم ومنطق يراد به خلق أصوله ومذاهبه . وقد وقف العالم « دوركهايم » جهوده على القول بأن الحوادث الاجتماعية هي حوادث مخصصة معينة يجب اعتبارها كأنها خاضعة لقوانين خاصة يكتشفها علم الاجتماع كما يكتشف علم الطبيعة قوانين الطبيعة

وهنالك فئة علمية تدين بالعلم . هذه الفئة التي قدم لها «رينان» كتابه « مستقبل العلم » هذه الفئة هي التي مشت وراء تعاليم « داروين » وعلى هذه الفئة ثبت مستقبل العلم ومستقبل الديموقراطية ، وفي الحقيقة كانت الجمهورية الفرنسية متقلقلة متزعزعة حتى عام ١٨٨٠ ، فتألب رجال السياسة والصحافة على استنقاذها من مأزقها، فعمدوا الى التبشير بكلمات « برتلو » بالمساواة والحرية والاتحاد والسعادة ، بالعمل على تأييد العلم الذي يجازي العاملين من أجله بالسلامة والعافية ورفاهية العيش ، وهو الذي سيحل عقدة الحياة والوجود .

ان هذه الرقية العلمية غزت الأدب فيما غزت وكان لها فيه تأثير بليغ ؟

خليل هنداوي

دمعـــة وفاء

على المرحوم الأستاذ غانم محمد

بمناسبة مرور اربعين يوما على وفاته

للأستاذ زكي نجيب محمود

أحقاً يا غانم حم القضاء وقام فيك الرثاء ؟ أحقاً طاح بدوحك العاتي منجل الفناء؟ واَفجيعتاه ؟ قم إذن يا صاح فاهتف بالمحاجر أن تسح الدمع هتوناً سخيناً ، وبالحناجر أن تسكب ذوب النفوس أنيناً حزيناً .

عجباً ! أستطاع الدهر في لمحة من الزمن ، أن يطوي الشمس في ظلمة الرمس ؟ أستطاع الموت بلفظة في لحظة أن يدك طوداً كان شامخاً بالأمس ؟ أفي اليوم الذي نرجو للأمة فيه غانماً وغانماً ، يهوي مخلب الموت ، بين أشاجعه رعب القدر ، وننظر فاذا غانمنا الواحد قد افتقدناه في مثل اللمح بالبصر ؟ حنانيك يا رباه ! أأصبت بالمنية غانماً أم أصبت عشيرة في رجائها ؟أرميت بالبلية رجلا أم رميت الرجولة في سويدائها ؟ فما كان فقيدنا في عداد القوم واحداً كسائر الآحاد ، بل كان ينبوعاً للرجولة دافقاً ، وقلباً للوطنية خافقاً ، يمتلىء همة حتى ليسكب الهمة في بنيه ، ويشتعل حماسة حتى ليبث الحماسة في مواطنيه ، لا يدخر في سبيل ذلك ما وسعه من جهد اللسان والقلم . فهأنذا أطوي الليالي القهقرى أعواما ثلاثة ، فاذا بالمطبعة العربية تذيع في الناس كتاباً لا يخطف العين مظهره ، ولا يضج به في الناس منشئه ومسطره : جان دارك تأليف غانم محمد .

أقبلت على الكتاب حينئذ ، ولم أكن أدري عن صاحبه إلا أشتاتاً منثورة ، فحسبته بادىء الأمر كتاباً من الكتب أخرجه للناس كاتب من الكتاب ، فما هي إلا صفحات عشر أتلوها حتى همست لنفسي قائلا : كلا ! تالله إن الرجل لكاتب بارع وأديب قدير ، اختلجت في نفسه الفكرة عنيفة جبارة. تنشد التصوير والتعبير ، فاستجاب لدعوة القلم وكأنه فولتير يثور فيسطر فيثير . نعم لم تكن إلا صفحات عشراً أتلوها حتى أيقنت أن الكاتب منتش مخمور ، قبس من صحائف التاريخ

هدى ونورا ليلقيه فى جوانحنا لهباً مسعوراً ! فما كتابه هذا عن جان دارك إلا منصرف تدفقت فيه أواذى نفسه المضطربة المصطخبة فى بيان رائع خلاب . كأنها وحى النبوة يستحيل إلى بلاغ فى كتاب .

« استمع إليه كيف يستهل كتابه :

لم أكتب مذ عرفت أناملى قبض القلم وتحريكه ، ولم تنطق شفتاى مذ انفرجتا للنطق ، ولم يخفق قلبى ، ولم يجش وجدانى وتنشرح جوانحى ، منذ أن خرجت إلى الدنيا ، لأمر من الأمور هو أسمى وأرفع وأشرف من الغرض الذى أرمى إليه بموضوع اليوم »

ثم انفذ إلى الختام وانصت إليه ماذا يقول قبيل أن يضع القلم :

« وإنى أختم هذا الكتاب مترسما أثر جان فى دعوتها وحياتها وصفاتها ، وكلى أمل خالص أن تبعث قراءة قصتها فى قلوب القارئين نور الإيمان الصادق ونشوة الوطنية الحقة . . . إن ما حققته جان فى مقدورنا أن نحققه ، إذا ما ارتفعت بنا ، كما ارتفعت بها هى من قبل ، أجنحة الوطنية والدين . . . أيتها الفتاة المنقطعة النظير ! انفخى فينا من روحك ، وبثى فينا من حماستك ، لكى نحيا حياتنا ونموت فى سبيل الله والوطن ! ! »

وإذا أنت مضيت بين تلك الفاتحة وهذه الخاتمة ، لم تقرأ أسطراً كالأسطر ، بل أحسست فى الكلم حرارة وقوة وحياة ، فهو ثائر حيناً شاعر حينا ، إذا جالت جان دارك فى أجنادها زأر القلم فى يده زئيراً ، وإذا جلجلت جان دارك فى أصفادها صر القلم من الأنين صريراً . وهكذا صور تتلوها صور ، أبدعها صناع فسواها ، وألهمها من شعوره فأذكاها ، حتى لتقرأ الكتاب وكأنما تخوض فى أتون مستعر ، أو كأنك تنصت إلى صوت من السماء يهتف بك : تلك جان دارك فى فرنساها ، وهأنت ذا فى مصرك ، فماذا أنت صانع ليذكو شعورك الخابى ، وينهض بلدك الكابى ؟ ! وهذا النداء فى ذلك الحين ما كان أبلغه من نداء حيث كادت تذهل أنفس عن الطموح إلى السماء ، فانحرفت إلى الأرض راضية من الغنيمة بالحب والماء !

لم أكد أفرغ من قراءة الكتاب عندئذ ، حتى حملت قلبى على وهنه وعثاره ، ودعوت للكتاب (فى الرسالة) لأنى آمنت أن الدعوة له صيحة وطنية واجبة ، وكلما ازددت للكتاب قراءة ازددت يقيناً بما قلته إذ ذاك من أن غانما « أخرج بكتابه للناس درة من أثمن ماتحوى لجة التاريخ من درر ، ونشر صفحة من أسطع ماطوى الدهر من صفحات . ومن أنه بهذا الكتاب قد أذاع فى الناس مثلا أعلى للتضحية والفداء ، ونموذجاً سامياً للوطنية المشتعلة الصادقة ممثلة فى جان دارك » . وما أزال عند كلمتى التى ختمت بها مقالى من أن غانما « قد وفق فى التصوير توفيقاً بلغ حد الكمال ، وأن ليس هذا الكتاب واحداً من الكتب يتلى ثم يطوى وكأنه لم يكن . إنما هو فيض من الشعور القوى النبيل سيغمرك ويحتويك حين قراءته ، وسيطبعك بطابع هيهات أن يزول أثره مابقيت على الدهر إنسانا »

ذلكم هو غانم الذى التقيت به فى كتابه منذ أعوام ثلاثة لقاء قارئ بكاتب ، ثم التقيت به منذ أشهر ثلاثة لقاء روح بروح ، ثم افترقنا فراق الأبد ، بعد أن خلف لنا حرارة نفسه وحلاوة جرسه فى كتابه الخالد

فرحمة الله ورضوانه على الفقيد الكريم

زكى نجيب محمود

شاعر الاسلام

محمد عاكف

بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام

— ٢ —

كتب الأديب الكاتب عمر رضا صهر الأستاذ محمد عاكف مقالا فى جريدة جمهوريت التركية بعنوان «أيام عاكف الأخيرة» فأردت أن يطلع عليه قراء الرسالة فى هذه الترجمة :

منذ ستة أشهر أرست فى استنبول باخرة قادمة من مصر ، توسَّمتُ النازلين منها فاذا على السلم شبح لم أثبته للنظرة الأولى ، فلما أنعمت النظر عرفت الفاجعة ؛ وتأوّه رفيق مدحت جمال آهة أعربت عن وقع الفاجعة فى نفسه .

لقد انحطم الأستاذ عاكف ! ولكنه كان على ذلك ، لا يزال متفائلا يحسب أن هواء الوطن يحييه . ذلك كان ظنه ، وذلك ما أمله إلى آخر رمق من حياته . أخبرته يوما أن أحد أقاربه يود مقابلته . فقال : « لا يشق على نفسه ؛ سأزوره أنا حين أستعيد بعض عافيتى »

ولقد حيرنى حقاً هذا الرجاء ، وهذه القوة الروحية التى رسخت فيه بعد أن آذنه الأطباء بخطر المرض ، وضعف الأمل ، ورأى هو صحته تضمحل يوما بعد يوم . كان تفاؤله يملأ نفسى عجبا ، فكنت أقول لنفسى : أتراه يريد أن يشعرنا الطمأنينة وينفى عنّا الفزع ؟ ثم أرجع فأقول : كلا إن هذا الأمل القوى لا ينبع من تعلق البشر بالحياة وإفراطهم فى حبها ، بل وراءه منبع أبعد غوراً ، وأغزر فيضا ، وأسمى مكانا

كان الزائرون يتتابعون إلى حجرته فى المستشفى ، وكان فى هذه الزيارات ارهاق له . وكان الأطباء يكرهونها ولكنه هو كان يحرص على لقاء أصدقائه ورؤية أحبّائه ، وكان يسكن إلى محادثة كل واحد منهم منفرداً ولا يجد فى هذا حرجا ولا نصبا .

ولم يكن بد من تغيير هذه الحال ، فدُعى الأستاذ لينزل ضيفا فى دار لأحد أصدقائه القدماء . وكانت الدار فى « علم طاغى » .

وحسِب أصدقاء الأستاذ أنه سيجد فى هواء هذه الجهة ومائها بعض شفائه إلى ماتجدى عليه العناية بنظام الغذاء وتناول الأدوية التى كانت تجلب له من أوربا

فرح الأستاذ كثيراً حين بلغ علم طاغى وسكن إليها . ورُسم له أن يهبط المدينة مرة كل أسبوع لزيارة أصدقائه واستشارة أطبائه . وكان هو يقول : سأفترش سجادة تحت شجرة وأنشق الهواء النقى ، وأستمتع بحرارة الشمس الصافية ، وأحاول أن أسترجع قواى وشيكا . فاذا آنست فى بدنى الصحة ، دعوتكم جميعاً إلى علم طاغى ، وعندى هناك طاهٍ منقطع النظير .

وحق أن الأستاذ افترش سجادته فى ظلال أشجار علم طاغى الخضراء ، وأنس بها وتمشى فى تلك المروج ، ولكن مرارة الدواء كانت تنغص عليه جمال المكان ومسراته ، بل كانت ترد هذه المتعة الموموقة سما قاتلا . وكان يقول : لو أن هذه الأدوية تشرب مرة واحدة كل يوم ! لا أكاد أخلص من جرعة حتى ألزم بجرعة أخرى ، فأنى لى أن أشهد جمال علم طاغى وآنس لذّاتها .

لست أنسى قوله ذات يوم : « يابنى لقد كنت أطوى الطريق من اسكدار إلى علم طاغى سيراً على قدمى لا أبطىء ولا أقف . وهأنذا اليوم أقطع الطريق لا تمس قدماى الارض . ولكن ماذا تُجدينى هذه السيارات وآهاتى فيها لا تفتر . آه لو شفيت فعدت سيرتى أقطع الطريق على قدمى ! . » — وأما هواء « علم طاغى » فلم يرد على الأستاذ عافيته بل كانت قواه فى خور مستمر .

* * *

ليت شعرى ماذا ألهمه هذا التفكير العميق الذى دام أشهراً ؟ وماذا كان يريد أن يعرض علينا من أفكاره حين يبل من مرضه ! ! لقد كان نظم « قصة الاستقلال » إحدى أمانيه منذ سنين . وكان يبغى من التجائه إلى مصر أن يخلص من متاعب الحياة ويفرغ لهذه القصة . فلما هم بهذا طلبت إليه رياسة الأمور الدينية فى أنقرة أن يترجم القرآن الكريم إلى اللغة التركية ، فأشفق وأبى واعتل بأن أمامه قصصاً يود أن ينظمها ، فلم يقبل عذره وتوسلت رياسة الأمور الدينية بصديقه الحميم احمد نعيم بك أستاذ الفلسفة الاسلامية بجامعة استانبول فاضطر عاكف أن يذعن كارهاً . والحق أن إباءه الاضطلاع بترجمة

القرآن أول الأمر كان من إجلاله الكتاب الكريم واعتقاده أن إنساناً لا يستطيع أن يؤدى ترجمته على الوجه الجدير به مهما أوتى من العلم والبيان ، وكان كلما سئل عن الترجمة قال : « لم أقدر عليها . إنها لم تُرضنى فكيف ترضى غيرى ؟ » . وقضى الأستاذ سبع سنين فى مصر وهو فى شغل شاغل عن ترجمة القرآن ، وكانت النتيجة ما رأينا [1] فقد ضاعت تلك السنون وحرم الأدب التركى من أثر خالد . وكان نظم حجة الوداع من أمانيه ـ هذا المشهد التاريخى العظيم الذى يمثل الرسول فى حجته الأخيرة يخطب على مائة ألف من المسلمين ، وكذلك كان يريد أن ينظم قصة تمثيلية فى الحروب الصليبية وبطولة صلاح الدين الأيوبى ، وحالت دون الأمانى حوائل ، وعاد الأستاذ إلى استانبول عليلا بدت عليه أمارات الهجوم الأخير من هذا المرض المشئوم فثقل لسانه قليلا ولكنه لم يفقد من إدراكه إلا يسيراً

ويوماً تغيرت حال الأستاذ فجأة ، وبدت عليه أمارات القوة والنشاط ، فكان يتحدث إلى الناس ويستمع إليهم ، ويطلب أن يكونوا حوله ولا يرضى أن يترك وحده .

وفى مساء هذا اليوم ضاقت نفسه فلم يلبث إلا يسيراً حتى كانت الخاتمة

(للكلام بقية) عبد الوهاب عزام

---

(١) حدثنى الأستاذ رحمه الله أنه كان كارها احتمال هذا العبء وأن أصدقاءه قالوا له : إذا لم يكن بدّ من ترجمة القرآن فليس لها غيرك ، وأنه أكمل الترجمة وأراد أن تنشر معها تفسيرات فى الحاشية وأبت حكومة انقرة ان يكون مع الترجمة تفسير فأبى الأستاذ ان يعطيهم ما ترجم وانتهى الأمر .

سجين شيلون

للشاعر الانجليزى لورد بيرون

بقلم الاستاذ محمود الخفيف

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

— ٧ —

ذكرت أن أقرب الأخوين إلى مكانى تساقطت نفسه وذوى عوده، وكذلك ذكرت أن قلبه القوى انصدع وانسرقت قوته

عزفت نفسه عن الأكل وعافته، ولم يك ذلك لما كان عليه من قبح ووحشية، فقد ألفنا طعام الصيد ورضنا أنفسنا عليه.

أبدل ما كنا نشربه من لبن تجود به غنمات الجبل، بماء أتوا به من الخندق، وكان الخبز الذى يلقى إلينا على حال أحسسنا معها كأن دموع الموثقين البائسين قد سقته فالانته آلاف السنين، منذ ألقى الانسان ببنى جنسه أول مرة فى الأصفاد كما يفعل بضوارى الوحوش!

***

ولكن ما كان ليضيره ذلك أو يضيرنا، لم يكن ذلك ما أذاب قلبه وفت فى عضده، فقد كانت روح أخى من ذلك الطراز الذى تتسرب إليه برودة الموت حتى ولو كان فى قصر، إذا حيل بينه وبين شعاب الجبال وجوانبه الحادرة. وليت شعرى لم أخفى الحقيقة وأوجل النطق بها... لقد لفظ أخى أنفاسه

***

رأيته يموت ولكن واحسرتاه لم أستطع أن أسند رأسه، لا ولم أستطع أن أمسك بيده وهى تموت ولا بعد أن همدت فيها الحياة، لم أستطع شيئا من ذلك ولو أنى تنزيت فى الحديد وحاولت عبثا أن أفك السلاسل وأجعل أصفادى شطرين. لفظ أخى أنفاسه، ففكوا سلاسله وحفروا له لحدا قليل العمق، وقد جعلوه هكذا قريب القرار فى مثل تلك الأرض الباردة أرض ذلك القبو

***

ولقد توسلت إليهم أن يمنوا على بسلوة لنفسى فيدفنوا جثمانه فى بقعة يقع عليها ضوء النهار وهى فكرة سخيفة، ولكنها أوحت إلى نفسى أن قلبه الذى فطر على الحرية لن يجد حتى فى ضجعة الموت راحة فى مثل ذلك السجن

***

وكان أولى بى أن أكفى نفسى عناء هذا التوسل، فما أغنى عنى منهم شيئاً، إذ ضحكوا فى برود ثم وسدوه وسدوا عليه حيث سجنوه، وهناك رقد ذلك المخلوق الذى أجزلنا له الحب تحت أرض منبسطة لا ينبت فوقها عشب، ترتكز فوقها السلاسل المفرغة والأغلال نصبا ملائما لذلك الاغتيال!

— ٨ —

ولكن الآخر، ذلك الفتى الحبيب الذى كان يشبه الزهرة، ذلك الذى أعززناه منذ أن رأت الوجود عيناه، ذلك الذى كان يحمل صورة أمه فى وجه صبوح. ذلك الطفل الذى تحب فيه الطفولة جميعاً، ذلك الذى كان أحب وأعز خيال إلى أبيه الشهيد، والذى أصبح فى السجن آخر مابقى لأعنى به، والذى كنت من أجله أجهد أن أبقى على حشاشة نفسى، عسى أن يقلل ذلك من شقائه وعسى أن تتاح له الحرية يوما ما؛ أقول حتى ذلك الأخ أيضاً، ذلك الأخ الذى ظل إلى ذلك الوقت محتفظا بروح ذاتية أو موحاة، غلب على نفسه فى النهاية ورأيته يذبل كما تذبل الزهرة على غصنها يوما بعد يوم

***

يا إلهى! إنه لما يبعث الرعب فى القلوب، أن نرى الروح البشرية تنطلق مولية فى أية صورة وفى أى موقف، ولقد رأيتها من قبل تنطلق فى دم مسفوح، ورأيتها فى البحر الثائر تجاهد الموج المنتفخ القاذف، ورأيت المضاجع المحتضرة مضاجع الذين أسرفوا على أنفسهم يشيع فيها الهذيان من شدة الهول، رأيت ذلك كله وما حوى من صور مرعبة، ولكن رزئى فى أخى كان فاجعة.

***

لم يصحب موته هول مما أسلفت، وانما أسلم روحه مستيقنا غير معجل، وتساقطت نفسه ومضى هادئا وادعا، أكثر نعومه فى نحوله، وأبرز جمالا فى ضعفه؛ ذهب غير دامع المقلتين ولكنه عطوف رؤوف، حزين على من خلفهم وراءه؛ سار للموت وفى وجنتيه نضرة بدت كأنها تهزأ بالقبر! ولقد ذهبت صبغتها فى رقة وهدوء كما يتلاشى فى السماء قوس الغمام؛ سار وفى عينيه بريق يكاد ومضه يضىء ذلك القبو

***

مات لم أسمع له غمغمة ولا أنة تحسر على هذا الذى انتابه قبل أوانه. لم أسمع سوى كلمات قليلة عن حياة هى خير وأبقى، واشارة طفيفة الى الأمل أراد بها أن يثيره فى نفسى اذ قد غرقت فى السكون، وأحسست بفقدان روحى فى ذلك القفر الذى عظم عندى عن كل قفر.

وأخيرا توانت وتضاءلت تلك التنهدات التى كان يحاول كتمانها، تلك التنهدات المنبعثة من هزال نفسه المتلاشية

***

أصخت بسمعى، ولكنى لم أسمع شيئا، فصرخت اذ ذهب الهلع بلبى، فعدت فى وحشية المذعور ثم أدركت أنى صرخت عبثا؛ ولكن هلعى ما كان لينهنه بزجر، لذلك عاودت الصراخ وأحسبنى سمعت صوتا، وإذ ذاك فصمت سلسلتى فى وثبة قوية وأسرعت اليه ولكننى لم أجده!

وما فعلت سوى أن رحت أحدق فى تلك البقعة القاتمة، وما أحسست سوى أنى مازلت حيا وأن رئتى تتنفسان ذلك الهواء الرطب اللعين هواء القبو.

وهكذا انكسرت تلك الحلقة التى كانت تصلنى باللانهاية، والتى كانت تربطنى بتلك السلالة المضمحلة التى انحدرت منها؛ انكسرت فى ذلك المكان المهلك تلك الحلقة الوحيدة آخر الحلقات وأعزها جميعا لدى. وبات أخواى أحدهما تحت الأرض والآخر فوقها وكلاهما لا ينبض فيه عرق

***

أخذت بيدى تلك اليد التى تدلت هامدة، ولكن يدى واحسرتاه كانت مثلها فى برودتها، ولم أعد أجد فى نفسى القوة لأن أتحرك أو أناضل، ولكنى على الرغم من ذلك أحسست أنى مازلت حيا، وتملكنى ذلك الشعور المضطرم الذى لا يقر، ذلك الشعور الذى يكون مبعثه أدرا كنا أن الشىء الذى أوليناه محبتنا لن يعود أبدا الى ما كان عليه. وليت شعرى لم عجزت عن أن أضع حدا لتلك الحياة؟ لم يعد يربطنى بالأرض أمل. ولكن ظلت لى فيها عقيدتى وهى التى حالت دون أن أقتل نفسى.

— ٩ —

أما ما كان من أمرى بعد ذلك، فلست أتبينه تماماً. لا أذكر سوى أنى فقدت شعورى أولا بالضوء ثم بالهواء، وأخيراً بالظلمة نفسها. لم أعد أفكر فى شىء أو أحس شيئاً، ووقفت حجراً بين الأحجار. كنت كالصخرة الجرداء يغشاها الضباب، إذ لم يكن حولى سوى الفراغ والكآبة والظلام. لم يعد ثمة ليل ولا نهار؛ حتى ولا ذلك النور البغيض نور القبو الذى كان ينفر منه بصرى الكليل، لم يبق إلا الفراغ الذى فنى فيه الكون كله فلا أحس سواه، والوجود الذى لا يرتبط بمكان فى معناه!

لم يعد ثمة سماء ولا أرض، ولم يعد ثمة ثبوت ولا تحول ولا زمن ولا خير ولا شر، لم يكن هنالك سوى السكون، والتنفس الذى لا يبعث حركة فلا هو إلى الحياة ولا هو إلى الموت.

كنت فى بحر من الجمود الراكد تغشاه الظلمة، لا تدرك له نهاية، ولا يسمع فيه صوت، ولا تحس فيه حركة!

— ١٠ —

طافت بعقلى بغتة بارقة من النور؛ كانت غناء حلوا تغنى به طائر، غناء انقطع ولكنه ما لبث أن عاد؛ ولقد كان أجمل سجع سمعته الآذان! طربت له أذناى حتى دارت عيناى تتبعان هذه المباغتة السارة، فى تلك اللحظة لم تستطيعا أن تريا أنى حليف الشقاء، ولكن حواسى عادت فى خطا كئيبة إلى طريقها التى ألفتها، ورأيت جدران القبو وأرضه تدور فتلتف حولى فى بطء كما كانت من قبل، ورأيت ذلك البصيص المنبعث من الشمس يزحف كما كان يزحف من قبل؛ بيد أنى رأيت ذلك الطائر فى تلك الكوة التى دخل منها الشعاع يقف مشغوفاً أليفاً كما لو كان فوق شجرة، بل أكثر ألفة مما لو كان هنالك. كان طائراً جميلا ذا جناحين أزرقين وغناء جم المعانى؛ ولقد خيل إلى أنه تغنى بتلك المعانى جميعاً من أجلى! وما وقعت عيناى من قبل على طائر مثله ولن تريا بعد شبيها له أبداً. وبدا لى كأنما كان يعوزه إلف كما كان يعوزنى إلف، ولكنه لم يصل إلى نصف ما كنت فيه من وجد ووحشة. وكذلك بدا لى أنما قد جاء ليهبنى حبه، على حين لم يبق لى من يهبنى ثانية مثل ذلك الحب. ولقد جعلتنى هذه البشرية المنبعثة من حافة القبو أشعر ثانية وأفكر، ولست أدرى أكان أطلق سراحه حديثاً، أم أنه كسر قفصه وجاء ليطل على قفصى! ولكنى أيها الطائر الجميل وقد عرفت معنى الأسر لن أستطيع أن أريده لك!

وليت شعرى لعله زائر من الفردوس تنكر فى جناحين! ذلك أنى كنت أفكر أحياناً أنه ربما كان روح أخى هبطت إلى. ولتغفر لى السماء تلك الفكرة، تلك اللحظة التى جعلتنى أذرف الدمع وجعلتنى أبتسم، ولكنه فى النهاية ولى بعيداً عنى،

وإذن فقد كان من بنى الفناء؛ عرفت ذلك حق المعرفة. وإلا فما كان ليذرنى هكذا فى وحدة أحسستها ضعفين: وحدة كنت فيها كما يكون الجسد فى أكفانه، أو كما يكون السحاب المنعزل: ذلك السحاب الفريد الذى يتراءى فى اليوم الضاحى حينما تكون نواحى القبة صافية كلها فيبدو فى الجو كعبوس لا موجب لظهوره والسموات طلقة والأرض فى بهجة

— ١١ —

طرأ على حالى نوع من التغير إذ أصبح آسرىّ ذوى رحمة؛ ولست أدرى ماذا جعلهم كذلك وقد ألفوا مناظر الشقاء، ولكن ذلك ما حدث. بقيت سلسلتى المكسورة منفصمة الحلقات، وكانت الحرية عندى أن أتجول فى صومعتى من جانب إلى جانب، وأن أقطعها طولا وعرضاً، وأن أطأ أرجاءها جميعاً، وأدور حول كل عمود، ثم أعود إلى حيث بدأت، لا أتجنب وأنا أطأ الأرض بقدمى إلا ذينك القبرين العاريين: قبرى أخوى. ذلك أنى كنت اذا ظننت أن وطأة على غير قصد منى قد أهانت مضجعهما الخافض، ينبعث نفسى لاهثاً كثيفاً، وينقلب فؤادى المتحطم ضريراً عليلا.

— ١٢ —

تسلقت الحائط ولكنى ما أردت الهروب. فقد غال الردى كل من كانوا يحبوننى من البشر، ومن ثم صارت الارض كلها عندى سجنا أكثر سعة مما أنا فيه، لم يكن لى ولد ولا والد ولا ذو قربى، ولا شريك فيما ألاقى من شقاء.

ذكرت ذلك فاغتبطت به لأن فكرى فى هؤلاء قد أورثنى الجنون، ولكنى كنت أتطلع إلى تسلق الجدار حتى النوافذ التى تعترضها القضبان. كما كنت أتطلع إلى أن أصوب بصرى مرة أخرى فى هيام إلى تلك الجبال الشاهقة

— ١٣ —

رأيتها لما تزل على ما كانت عليه، فلم تنل منها يد التغيير كما نالت منى فى الاغلال؛ ورأيت الثلج الذى يكللها ما تهامنذ آلاف السنين كما رأيت البحيرة الواسعة الطويلة أسفل منها، ونهر الرون الازرق فى أشد فيضه؛ وسمعت جارف السيل يتلاطم ويندفق فوق الصخر المتشقق والجذوع المتحطمة؛ وأخذت عيناى المدينة النائية البيضاء المنازل، كما لمحت القلاع التى تفوقها ابيضاضاً تجرى مسرعة؛ ثم وقع بصرى على جزيرة صغيرة تراءت حتى لى أنا باسمة، ولم يلح سواها أمام ناظرى؛ جزيرة صغيرة خضراء ظهرت كأنما لا يزيد عرضها على ذلك إلا قليلا، قامت فيها ثلاث شجرات باسقات، وكانت تهب عليها نسمات الجبل وتجرى بجوارها المياه، كما كانت تنمو فوقها زهرات جميلة اللون عاطرة الانفاس.

ورأيت فيما رأيت السمك يسبح إلى جذران السجن؛ ولقد بدا للعين مرحا: وحداته وجماعاته؛ وأبصرت النسر يركب متن الريح الهائجة، ويخيل إلى أني لم أره من قبل فى مثل تلك السرعة. وعندئذ اخضلت عيناى بدمع جديد وتبلبل خاطرى، ووددت لو أنى لم أنطلق من تلك السلاسل، ولما نزلت أحسست كأن الظلمة فى مأواى الكدر تقع على كأنها حمل ثقيل؛ كانت كأنها القبر ينطبق على من جهدنا فى خلاصه، وأحس بصرى وقد انقلب الى هكذا محزونا كأنه يطلب راحة كراحة القبر.

— ١٤ —

ولست أدرى كم لبثت بعدها فى ذلك القبو، ربما كانت شهورا أو أعواما أو أياما. لم أحص لها عددا ولم ألق اليها بالا. ولم يك ثمة من أمل يرفع عينى ويمسح عنهما القذى المحزن. وأخيرا أقبل الرجال ليطلقونى من الأسر، فلم أعن أن أعرف ما سبب هذا ولا حفلت أين أذهب، فلقد تساوى فى النهاية عندى الفكاك والقيد. وتعلمت أن أصالح على اليأس نفسى. ولذلك حين أقبلوا يطلقوننى وحين ألقيت جميع السلاسل جانبا، أحسست أن تلك الجدران السميكة قد صارت لى معتكفا وأصبحت على وقفا؛ وكأنى شعرت نصف شعور ساعتئذ أنهم أتوا ينتزعوننى من وطن ثان. لقد اتصلت بينى وبين العناكب أسباب الصداقة، وكنت أراقب عملها الدائب، كما كنت أرى الجرذان فى نور القمر. وليت شعرى ماذا يدعونى أن أحس أننى دون هؤلاء جميعا؟ لقد صرنا آلافا جمعتهم وحدة المكان

وكنت أنا فيهم ملك الجميع، ولى الحول أن أقتل أنى شئت! ولكنا تعلمنا أن نعيش معا هادئين، وذلك لعمرى من عجيب الأمور! فى ذلك السجن توثقت الألفة بينى وبين الأغلال ذاتها. وهكذا ينتهى بنا طول الاعتياد إلى ما نصير اليه فهأنذا الذى لا قيت ما لا قيت قد تنهدت حينما عادت حريتى إلى!

الخفيف

الفنون

اكروبوليس اثينا

ومعبد بارتنون: Parthenon

للدكتور احمد موسى

يرى الواقف فى وسط اثينا على بعد ليس بقليل ، مرتفعا أشبه بتل منبسط القمة ، تعلوه مبان ظاهرة ، أكثرها ارتفاعاً معبد بارتنون .

والقاصد إلى هذا المرتفع يعرج إلى جهته الغربية ليستطيع الوصول اليه ، فتنتهى به الطريق إلى مدخل پروبيلين المعتبر من أكبر الأعمال البنائية فى اثينا ، مبنى كله من الرخام بين سنة ٤٣٧ وسنة ٤٣٢ ق . م . ، على آثار بناء قديم ، تحت إشراف المهندس منيسيكلس Mnesikles ، واستغرق بناؤه زهاء الخمس سنوات . وهو بحالته الحاضرة لايزال يعطى المشاهد أنموذجاً فذاً لعصر البناء الفنى فى اثينا ، فضلا عن أنه مثال رائع لجمال البناء على مر القرون .

وهو بوضعه أشبه شىء بجبين الحسناء فى نظر المتجه إلى اكروبوليس ، لأنه فى مقدمة مايرى الداخل إلى المرتفع ، يمر منه للوصول إلى المعابد .

وكانت شهرة پروبيلين وبارتنون شهرة فاقت كل وصف فى ذلك الحين ، ومع أن عمل التجديد به لم ينته بعد ، إلا أن الزائر لاكروبوليس لا يمر منه دون أن يأخذه العجب من عظمة إخراجه وإتقان بنائه وجمال أجزائه .

ويتكون الجزء الأوسط منه من مداخل بعضها خلف بعض على جانبيها أعمدة من الطراز الدورى تحمل سقفاً جملونى الشكل يبدأ بأفريز شمل نقوشاً ورسومات دون تماثيل ، كما ذكر ذلك كل من سپن وهيلر Sponn & Wheler اللذين زاراه سنة ١٦٧٥ .

ويلاحظ المشاهد للمدخل آثار الألوان وماء الذهب على أجزاء من رؤوس أعمدته ، كما يرى أن الردهتين الأمامية والخلفية تتجهان بستة أعمدة دورية إلى الشرق والغرب ، وبينهما يقع المدخل بفتحات كبار كانت فى ذلك الحين مما يمكن إغلاقه وفتحه حسب الرغبة بواسطة أبواب أشبه بأجنحة .

وعلى المدخل المؤدى إلى الباب الأوسط بحيث يتصل بالردهة الغربية ، وله أيضاً ثلاثة أعمدة يونية الطراز على كلا الجانبين ، وتتصل الصالة الداخلية من الشمال والجنوب ببناءين صغيرين زاداهما قوة وهيبة جعلت من المجموع الكلى لپروبيلين فخامة ظاهرة ، وطرازاً أنيقاً .

أما البناءان الصغيران فيسمى الأيمن منهما بينا كوتيك لأنه كان شاملا لمجموعات صور الفنانين فى ذلك الحين . والأيسر أصغر بكثير من الأيمن نظراً لما طرأ على العمل من التعطيل بسبب حرب البلوبونيس ولمعارضة حزب الكهنة فى امتداد البناء خشية أن يصل إلى حدود معبد اثينا نيكا وارتميس برورونيا فيقلل من شانهما ، كلاهما يكمل الجمال الانشائى لپروبيلين . (انظر ش ١ من المقال السابق)

وهناك ردهات أخرى لم يتم بناؤها كما كان مفروضاً وفق التصميم الذى وضعه منيسكليس للأسباب المشار إليها .

يسير المشاهد بعدئذ إلى معبد بارتنون الخالد الذى يعد أبهى بناء فنى فى العصر القديم كله ، فهو وحيد فى مظهره العام وأبهة بنائه وعظمة تجسمه وضخامته دون خروج على أصول الانسجام فى أكمل معانيه .

وإذا شاهدت كل آثار اثينا فلن ترى من بينها بناء يفوق بارتنون ؛ ومع أن الفارق بين مظهره الحالى ومظهره القديم شاسع جداً إلا أنه لايزال يشع جمالا خالداً يملأ الروح بهجة ويفعم العقل روعة .

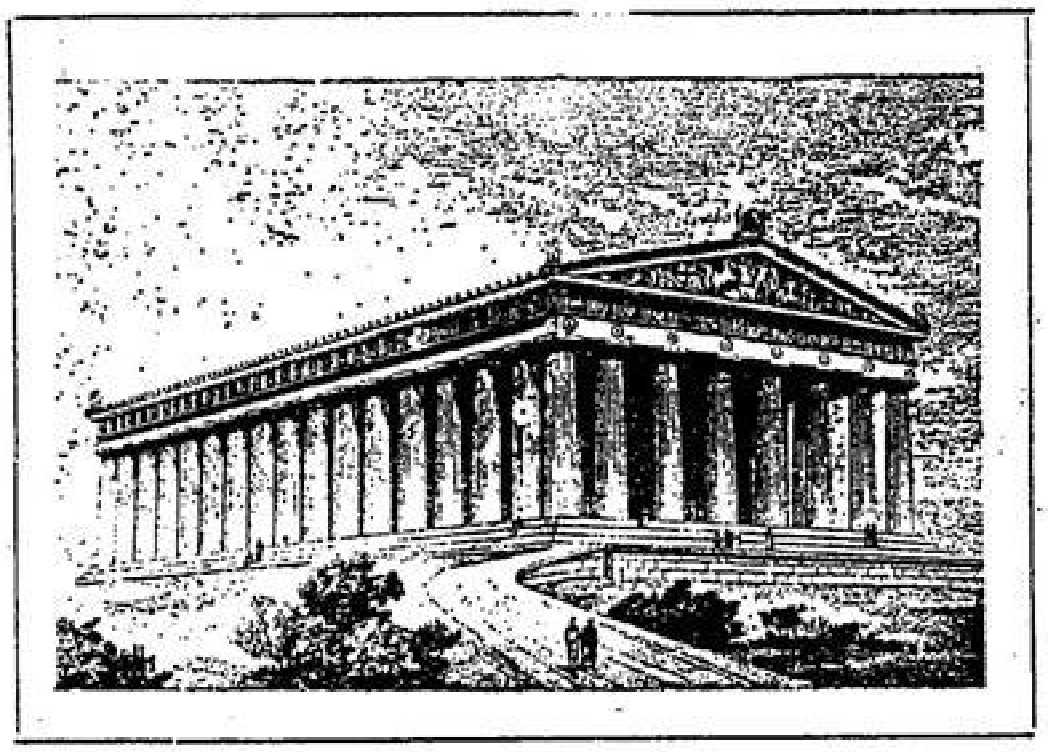
يقع بارتنون فى وسط جنوب المرتفع ، فهو بموقعه هذا يشغل نقطة أشبه بمركز قوس دائرى يلتف حوله كل ما قام على المرتفع من مبان زادت فى عظمته وقوته (انظر ش ١ من المقال السابق) .

كان أساس الحوائط وما يعلوه قليلا من الرخام الخالص عند ما هاجم الفرس أثينا وأشعلوا النار بالمرتفع ، ولكن أدرك عصر بركليس لجدد بناؤه وجعل كله من الرخام .

قام بركليس ببناء هذا المعبد كما تولى بنفسه الانفاق على تكاليفه . أما أستاذا بنائه فكانا اكتينوس Aktinos وكليكراتس Kallikrates

وتعد حليات البناء الخارجية من أروع القطع الفنية التى عملها الفنان العظيم فيدياس Phedias فكانت معجزة سميت باسمه إلى اليوم ، وضع تصميمها وأشرف على عملها واشترك فيها بيده ونفخ فيها من روحه . كان فيدياس صديقاً مقرباً لبركليس ، فأفادت هذه الصداقة إلى حد بعيد فى إخراج معبد بارتنون على هذه الصورة من الجمال والروعة .

أقيم هذا البناء كما تشير الكتابات الخاصة به فى القرن الخامس عام ٤٣٨ ، وافتتح عام ٤٤٧ ن . م ، ، ومن هذا يتضح أنه تم فى عشر سنوات بعد مجهود جبار استغرق كل أيام السنين العشر . وإذا علمنا أن هذه الأعجوبة البنائية الرائعة شملت ٦٢ عموداً كبيراً و ٣٦ عموداً صغيراً وحوالى الخمسين تمثالا بحجم الانسان الطبيعى لتحلية الموضعين المثلثى الشكل من الناحية الأمامية والخلفية المحمولة على الأعمدة لتكوين واجهتى السقف الجالونى وبأفريزه البالغ طوله ١٦٠ متراً حول البناء من نواحيه الأربع ، واثنين وتسعين مستطيلا صغيراً انحصرت بين رؤوس الأعمدة وقاعدة السقف فكونت الافريز ؛ وأخيراً تمثال اثينا الذى بلغ ارتفاعه ثلاثة عشر متراً وصنع كله من العاج والذهب ؛ إذا تمثلنا كل هذا الانتاج الفنى الهائل فى بناء واحد تناسقت كل أجزائه وانسجمت كل مشتملاته ، وجدنا أنفسنا أمام عظمة قل أن يجود الزمان بمثلها مرة أخرى .



(شكل ١) منظر عام لمعبد بارتنون

أنظر إلى الأعمدة المتكررة دون املال ودون تشابه (ش – ١) ، وتصور إلى أى حد وصل فنانو الاغريق ، وإلى أى درجة بلغت القدرة فى الانتاج الفنى الذى يعد بحق آية من آيات القدرة الانسانية فى أبهى ما وصل إليه تفكيرها وشعورها بالوجدان والجمال .

والاعمدة كما ترى عملت مسلوبة من أعلاها ، كما أنها لم تكن مستديرة صماء حفرت على طولها قنوات متوازية سارت على ارتفاع العمود فزادته حسناً وأكسبته حياة . حملت الاعمدة السقف الجالونى الذى لم يبن فوقها مباشرة ، بل ارتفع قليلا ليترك مكاناً إلى المستطيلات الصغيرة الملتفة حول محيطه الخارجى البالغ طوله ١٦٠ متراً كما سبق القول . وترى على هذا المحيط الافريز الشامل لتلك المستطيلات المملوءة بالمناظر البارزة الأخاذة لبصر المشاهد المدقق . اشتملت كلها ما يمثل كثيراً من حياة الاغريق العامة والخاصة . والمجال هنا لا يسمح بالتوسع فى التكلم عنها أو الاتيان بمعظم صورها . ولما كانت دراستنا فى هذا المقال اجمالية ، فاننا نأتى ببعض هذه القطع .



(شكل ٢) المتسابقون ، جزء من الافريز الشمالى لمعبد بارتنون

فاذا تأملت المتسابقين بخيولهم (ش ٢) أخذتك روعة غريبة تملك عليك مشاعرك عند ما تعلم أن هذا ما استطاع الفن الاغريقى إبداعه قبل المسيح بخمسة قرون .

انظر إلى الانشاء الكلى للقطعة وتصور أن هذا منحوت على الرخام ومع ذلك ظهر بهذه القوة التى مثلت صورة تنبض بالحياة . انظر إلى الخيل وهى جامحة وإلى تفاصيل أجسامها وهى فى غاية من الدقة ، وإلى بروز عضلاتها التى لا تخالف أصول التشريح ؛ ثم تأمل الفرسان واذكر قدرة فيدياس فى عظمة إخراجه لهم دون تناظر ودون تماثل ، لاشك ترى أن هذا دليل الغنى الفنى إلى أبعد حدوده . تأمل عيون الفرسان وعيون الخيل تر اليقظة الكاملة فى الاولى ، والوثوب التام فى الثانية .



(شكل ٣) جزء من افريز معبد بارتنون

والصورة ٣ أوضحت لنا أربع نساء تحمل كل منهن آنية ، ظهرت أجسامهن كاملة مغطاة إلى أعناقهن بملابس امتلأت بالحياة ، فالتعاريج والتفاصيل التى شملتها هذه الملابس لا ترى لها نظيراً فى قوة الاخراج ولم يترك الفنان رؤوسهن متشابهة ، بل جعلها تختلف الواحدة عن الأخرى مسجلا بذلك الحالة كما كانت ، فضلا عما ينجم عن ذلك من تقوية درجة الاستمتاع النظرى ، يجعل الينى تربط الشعر برباط

رفيع ، على حين جعل الثانية بذؤابة صغيرة ظهر بروزها من خلف رباط الرأس ، وتركت الثالثة شعرها مسترسلا على ظهرها ، أما رابعتهن فقد أخفت الشعر تحت غطاء هرمى الشكل .

أما تفاصيل الوجوه فهى مع كونها تعبر عن جمال المرأة الاغريقية فانها تمثل الخشوع إلى حد بعيد ؛ إنهن يحملن ما بأيديهن بقصد التوجه إلى المعبد . أما نبل الاخراج فهو ظاهر من طريقته فى تكوينهن الواحدة وراء الأخرى فى انسجام .



(شكل ٤) حاملو الاوانى

وصورة حاملى الأوانى (ش٤) تريك ، فوق قوتها الفنية البعيدة إلى أى حد استطاع المثال أن يجعل من حركة سير الثلاثة رجال صورة رائعة لقدرته على الإخراج — تأمل صدر الرجل الأوسط تر الفنان لم يتركه دون حياة ، فوضوح خطوط العضلات وبروزها مع ما تراه شاملا للقطعة من حسن التصوير ودقة الثنايا ، كل هذا جدير بالاعجاب . إن غنى مادة فيدياس ظاهر واضح عند ما تحقق من الكيفية التى سار عليها المثال فى تكوين ذراعى كل رجل وكيفية حمله الآنية فوق رأسه وسندها بيمينه .



(شكل ٥) مجموعة آلهة العدالة من الافريز الشرقى لمعبد بارتنون .

ومن قطع بارتنون الرائعة أيضا اللوحة (ش ٥) حيث ترى إلى أقصى اليسار رجلا جالسا يتحدث إلى شاب بجواره . مشيراً له بيسراه إشارة المستمر فى الحديث ، وهو ينصت اليه ، وإلى اليمين ترى ولداً عارياً يستند إلى ركبة أمه وهى تشير إليه لافتة نظره إلى شىء معين ، وكأن مجاورتها تشترك معهما فى النظر ، وهى فى مجموعها أوضحت ما أراده الفنان من تمثيلها آلهة العدالة .

أما صورة تيسويس Theseus (ديونيزوس) الجالس عارياً فهى وحدها درس كامل لجمال الانشاء وصدق التعبير وقوة الاخراج ، فكل ما برز فيها من تفاصيل تشريحية مملوءة بالحياة وان المتحف



(شكل ٦) ثيسويس (ديونيزوس ؟)

البريطانى ليفخر بوجود هذه القطعة وغيرها من تماثيل بارتنون التى لا تزال إلى الآن النماذج الفذة لفن النحت .

ومهما يكن من شىء فان بارتنون أعظم بكثير من أن يسجل بين سطور لا يتجاوز ما جاء فيها قطرة فى محيط فنه وجماله .

(لها بقية) أحمد موسى

من هنا ومن هناك

الأنثولوجيا الجديدة وهر هتلر

الأنثولوجيا (New Ethnology) أو علم الأجناس البشرية هو علم حديث لا يزيد عمره على الخمسين أو الستين سنة ، وأشهر العلماء الذين ساهموا في مباحثه هم هكسلي وولفرد بلنت وجريفث تايلر وسير . ف . بترى والأستاذ ج . ف هورابين الذى وضح بالرسوم خلاصة التاريخ لولز ثم الأستاذ العلامة إليوت سميث الذى يتعصب لمصر القديمة ويعترف أنها صاحبة الفضل فى تثقيف العالم . ولقد كانت الأنثولوجيا القديمة تحصر الأجناس البشرية فى السلالات الثلاث التى تنتسب إلى أبناء نوح وهم حام وسام ويافث ، وقد نسخت الأنثولوجيا الحديثة تلك النظرية البالية وأصبحنا نرد الشعوب فى أقاصى الأرض إلى أصول أقرب إلى الحقيقة وإن يكن الجدل لم ينته بعد حول هذه الأصول

وقد أثار العداء الناشب بين هر هتلر وبين اليهود الجدل من جديد حول الأصول الأنثولوجية وكانت النتيجة الهائلة أن طرد اليهود من ألمانيا وأن حرمت ألمانيا التزاوج على أبنائها من غير الآريين ، وهى تخص بهذا التحريم الشعوب السامية وإن تكن تقصد - كما صرح ساستها - أنها تعنى اليهود من بين الشعوب السامية قاطبة ! !

وبعد أن نهضت اليابان نهضتها الحاضرة أصبح علماء الأنثولوجيا فى شك مريب من القيم الذهنية التى كانوا يخصون بها بعض الشعوب . ونحن لا تعنينا هذه القيم الآن وإنما أردنا أن نقدم للقارىء خلاصة مفيدة عن الأجناس التى تعترف بها الأنثولوجيا الحديثة

١ — فهم يرجعون الأصول الإنسانية إلى العصر الباليوليتى الأقدم وأشهر أناسيه هم : إنسان هيد لبرج والإنسان النيندرتالى وإنسان بلتدن ثم الإنسان الراقى الذى هو الجد الأول للشعوب

٢ — ثم يأتى العصر الباليوليتى الحديث وتنقسم أناسيه إلى مجموعتين كبيرتين : المجموعة الكروماجنارديه Cromagnard Types والمجموعة الجريمالديه Grimaldi Types . وهذه المجموعة هى مجموعة الزنوج وقبائل البوشمان والاستراليين والطسمانيين والأندمانيين

٣ — أما المجموعة الجريمالديه فهى مجموعة الأجناس الراقية وتتفرع إلى ثلاث شعب : الأجناس النورديه والأجناس السامية . الأجناس المغولية

٤ — على أن بعض العلماء يطلق اسم (الجنس القوقازى) على سكان أوروبا وغرب آسيا ، ويقسم القوقازيين إلى (نورديين) وهم أهالى شمال غرب أوروبا ثم (أيبريين) وهم أهالى البحر الأبيض و (ألبيين) وهم سكان الألب والجبال الممتدة منها

٥ — وهناك أجناس مولدة (خلاسية) من النورديين والأيبريين أهمها الأيرلنديون والقلتيون والغاليون

٦ — وإذا ذكر الآريون فإنما يجىء ذكرهم عند الكلام عن الفيلولوجيا (التى تعنى علم فقه اللغات) ويشملون الأنجليز والفرنسيين والألمان والاسبان والأيطاليين والأغريق والروس وأهل أرمينيا . والفرس وشمال ووسط الهند ويسمون Indo-European أو Aryan Family

٧ — وتشمل شعبة الساميين المصريين والعرب والشاميين والفرس والسامريين والدرافيد (الهند) والسياميين وأهل ملايو

٨ — أما شعبة المغول فتشمل الهون والترك والمنغوليين والاسكيمو والأمرنديين واليابانيين والصينيين والتتار

٩ — ويتكون من أجناس المجموعة الراقية الكروماجنارديه مزيج وسط يطلقون عليه (البرونيتيين) وهم شعوب الثقافة الهليوليتية

ولا يحسبن القارىء أن هذه الأجناس صافية مستقلة بأصولها محتفظة ببذرتها فقد تزاوجت كثيراً وتداخل بعضها فى البعض الآخر . ومن أنفع الكتب التى تفيد المستزيد فى هذا الباب كتاب الأستاذ إليوت سميث (هجرة الثقافة فى العصور القديمة) (Migrations of Early Culrure)

د . خ

لويجى بيراندللو :

مات الأديب الايطالى العظيم لويجى بيراندللو منذ شهرين فخسرت فيه إيطاليا ملكاً أكبر من الحبشة أو أمبراطورية أوسع من امبراطورية سبط يهوذا . وشتان بين فتح مغتصب ، وأدب خالد مكتسب !

لقد استطاعت إيطاليا أن تساهم فى الثقافة العالمية منذ القدم إلى اليوم بطائفة من الأدباء الأفذاذ الملهمين، لولاهم لتأخر موكب الانسانية، ولتباطأت النهضة (الرينسانس) عن تاريخها منذ خمسة قرون، ولاستطالت العصور الوسطى، ولتبدل مجرى التاريخ. وهذه الأسماء البارزة فى تاريخ الفكر الانسانى: فرجيل، هوريس، شيشرون، سنكا، دانتى، بوكاشيو، جاليليو، كوبرنيكوس رفائيل، سانازارو، كارو، كاسا، كاستليونى، ليوپاردى، بترارك الخ. هى أسماء عظيمة لا شك، وقد ضم إليها ورقد إلى جانب أصحابها لويجى بيراندللو فزاد التراث وعظمت إيطاليا

ولد براندللو فى جيرجنتى إحدى مدائن صقلية وشب فى أسرة كثيرة المتاعب والخصومات، وقد ماتت أمه فتزوج أبوه وكان أبا شهوانياً مولعاً ببنات الهوى، وقد ظل متصلا بابنة عمته الأرمل برغم زواجه، وقد حملت منه سفاحاً فأرضاها بهبة مالية على أن تهاجر إلى بلد آخر

ويظهر أثر هذه الحياة العائلية المضطربة فى بيراندللو، وقد سجل فضيحة أبيه فى درامته (إكساء العراة) حيث يصور العلاقة الأثيمة بين الفتاة أرزيليا ومخدومها الذى شغف بها حباً واتصل بها ثم أولدها. فلما حاولت الانتحار ولم تستطعه أخف عليها مخبرو الجرائد ليتعرفوا سبب محاولتها الانتحار حتى اضطرت أن تعترف لهم بكل شىء ثم أفلحت آخر الأمر فى أن تنتحر.

وفى درامته (إيف - و - لين) يصور لنا شاباً مالياً يتزوج من الفتاة الجميلة (إيفلين) ثم يقع فى عسر مالى فيهرب ويتركها وقد ولدت منه طفلا جميلا - وتتصل إيفلين بمحامى زوجها فتتزوج منه وتلد له طفلة بارعة الجمال... وتمضى الأيام... ويعود الزوج الأول وقد هاجه الشوق إلى زوجته ولكنه يجدها متزوجة محاميه وقد ولدت له هذه الطفلة - وكان كل منهما يدللانها فيدعوها الاول (إيف) ويدعوها الثانى (لين) - وهنا تظهر براعة بيراندللو فى تصوير العواطف المتباينة فى قلب هذه المرأة وحيرتها بين حبها القديم وواجباتها الزوجية الحاضرة، وبين حبها لطفلها الاول الذى أصبح اليوم شاباً وطفلتها الاخرى من زوجها الآخر... ثم لا يسعها إلا الرضى بما قسم لها...

ولم ينبه ذكر بيراندللو إلا بعد إصداره درامته الخالدة (ماتياس باسكال) والتى يصور فيها حياة رجل ضج بالحياة وتبرم بزوجه وحماته فهرب منهما واعتزم الرحيل إلى الدنيا الجديدة. ولكنه مر فى طريقه على مونت كارلو بلد الميسر والمقامرة فرأى أن يجرب حظه على الروليت فربح أرباحاً طائلة - ولكنه قرأ فى الجرائد أن جثة غريق ظهرت فى النهر وأنها لرجل يدعى (ماتياس باسكال) فضحك ماتياس. وهنا خطر له أن يستغل الحادث وأن يعيش عيشة رجل مجهول طليق من الأوضاع الاجتماعية ولكنه سرعان ما يفقد شخصيته ويحس كأنه ميت حى!

وبعد صيت بيراندللو فعين أستاذا للآداب فى جامعة رومة، ولكن مهنته الجديدة زادت فى متاعبه، فقد كان يعلم التلميذات فى الجامعة، وكن ظباء كالهن، واضطرمت الغيرة فى قلب زوجته، وكثيراً ما اتهمته بميله إليهن وغرامه بهن؛ وغلا هو فى التبرؤ إليها ولكنها ازدادت حقداً عليه بزعم غلها يده فى نفقته الشخصية حتى لم تكن تسمح له إلا بدريهمات لا تغنى... ثم تضاعفت غيرتها وساورتها الشكوك فكرهت أبناءها وقلبت بيتها جحيما لا يطاق، فاضطر بيراندللو آخر الأمر أن يلجأ بها إلى مستشفى الأمراض العقلية

وقد أرسل بولديه إلى الميدان فى الحرب الكبرى فأسر الأكبر وجرح الأصغر، ثم وصل إليه أبوه المفلس الأعمى من صقلية، فزادت أشجانه وتضاعفت متاعبه، ولا سيما بعد أن لفظت الألسن وولغت فى عرض ابنته التى اضطرت أن تقضى بقية حياتها فى دير بعيد منفرد بعد أن فشلت فى الانتحار غير مرة ... ... فمن هذه الفذلكة السريعة يدرك القارىء كيف أثرت تلك الحياة المشجونة القلقة التاعسة فى كاتب إيطاليا العظيم، حين أصدر درامته الخالدة العبقرية (ستة أشخاص يبحثون عن مؤلف) والتى ملأها بكل مخاوفه وأحزانه

وقد تأثر بيراندللو بالكاتب الروسى دستوئفسكى، وبين دراماته وقصص دستوئفسكى صلات وثيقة، ولا نكاد نقرأ قصة أو درامة لبيراندللو إلا ونلمح أثر البطل راسكولنيكوف ومناظر (بيت الموتى) ماثلة فيها — وقد تأثر كذلك بالسيكولوجى النمسوى فرويد

وقد غادر منصبه فى الجامعة سنة ١٩٢٢ ليتفرغ للمسرح، وقد كان يصحب فرقته التمثيلية إلى مختلف العواصم الاوربية والامريكية ليباشر إخراج دراماته بنفسه

ومن أخلد دراماته وقصصه: هنرى الرابع - و - أنت تضحك - وزوجها - كوميديا الموت - وحصان فى القمر - والفخ - وشهوة الشرف... الخ.

ومما يؤخذ على بيراندللو إغراقه فى الخيال وتجزىء الشخصيات والغموض الشديد فى بعض مواقف دراماته المملوءة بالمنازعات وقد نتناول بعض دراماته بالبحث والتحليل فى أعداد تالية

د. ح

البريد الأدبي

المصطلحات العسكرية في مجمع اللغة العربية :

تألفت فى المجمع اللغوى الملكى لجنة لوضع كلمات عربية للمصطلحات العسكرية المستعملة فى الجيش من حضرات الأساتذة الأب انستاس الكرملى وحسن حسنى عبد الوهاب باشا والشيخ أحمد السكندرى وسيادة حايم ناحوم أفندى ومنصور فهمى بك ، وقد روعى فى تشكيلها أن تضم بعض ممثلى الأقطار العربية الأخرى للاستئناس بما اتبع فى البلاد الأخرى ورغبة فى توحيد المصطلحات فى جميع الأقطار العربية .

ومما يذكر أن بعض هذه الأقطار مثل العراق عرب تلك المصطلحات منذ مدة وقد حصلت اللجنة على بيان بالمصطلحات العربية فى تلك البلاد . وكان المجمع قد كتب إلى وزارة الحربية لموافاته بالمصطلحات العسكرية المستعملة فى الجيش الآن والتى ينظر أن تستعمل فيه بعد زيادته وإعادة تنظيمه ، وقد ألفت وزارة الحربية لجنة لموافاة المجتمع بما يطلبه . وقد أرسل المجمع إلى وزارة الحربية خطاباً طلب فيه انتداب ضابط ملم باللغة العربية ليحضر الجلسات التى يعقدها المجمع للنظر فى وضع عبارات عربية لعبارات التعاليم العسكرية

الاجتهاد فى الأصول

قرأت ما كتبه الأستاذ على الطنطاوى فى الرد على ماذهبت إليه من تجويز الاجتهاد فى الأصول كالفروع ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم جعل للمجتهد أجرين إذا أصاب وأجراً واحداً إذا أخطأ ، ولم يفرق بين أصول وفروع ، بل أطلق الأمر إطلاقاً ، وفتح باب الاجتهاد فى الأصول والفروع معاً

وقد أنكر الأستاذ هذا أشد الإنكار لأنه يخالف ما استقر عليه الرأى بين المتأخرين من علمائنا فى الاجتهاد ، ويخالف تعريفهم له بأنه استنباط الفروع من الأصول ، فيخرج من هذا المسائل الكلامية لأنها ليست من الفروع ، ولأن الحق فيها واحد فمن أخطأه فهو آثم ، فان كان الخطأ فيما يرجع إلى الايمان بالله ورسوله فالمخطىء كافر

وما كنت أظن أن الاستاذ يؤاخذنى بهذا بعد أن قرأ ما كتبته فى موضوع الاجتهاد ، وهو موضوع سأعود إليه بعد فى مجلة الرسالة الغراء ، فإنى فيما كتبت فى هذا الموضوع خارج على أولئك العلماء من المتأخرين ، فلا يصح أن يحتج على برأيهم فى الاجتهاد ، وتقييدهم له بالفروع دون الأصول

فالاجتهاد عندى بذل الجهد فى استنباط الأحكام من النصوص الشرعية ، اعتقادية كانت تلك الأحكام أو عملية

وليس بصحيح ما ذهب إليه الاستاذ من أن المخطىء فى المسائل الكلامية آثم ، لأن الخلاف بين أهل الكلام ليس مقصوراً على الخلاف بين جماعة أهل السنة وغيرهم من الفرق التى يقال إنها آثمة ، فهناك خلاف أيضاً فى علم الكلام بين أهل السلف والخلف من جماعة أهل السنة ، وهناك خلاف أيضاً بين الخلف من الاشعرية والماتريدية ، وهو خلاف لا إثم فيه لقيامه على الاجتهاد ، وأنا لا أزيد على هذا إلا أنى لا أفرق فيه بين أهل السنة وغيرهم

عبد المتعال الصعيدى

كتاب سياسى خطير

صدر أخيراً بالانكليزية كتاب سياسى عنوانه « عند الصفر » Zero Hour ؛ بقلم رتشارد فرويند R. Freund ، وهو كاتب انكليزى من أصل نمسوى ، عرف أخيراً بقوة كتاباته السياسية وحسن تقديره للحوادث والنتائج ؛ ويتناول المؤلف فى كتابه مواطن الخطر فى أوربا الحالية وفى أفق السياسة الدولية بصفة عامة ؛ ولا يعنى الكاتب بالنظريات والمبادىء النظرية ، ولكنه يعنى بنوع خاص بالحقائق العملية وبالحوادث الواقعة ؛ وهو يعلق أملا ضئيلا على عصبة الأمم وعلى مستقبلها وما يمكن أن تؤديه فى انقاذ العالم من اضطرابه الحالى . ويتحدث عن كل مسألة

وكل دولة فى أوروبا ، وعن الحوادث والقوى التى تضطرم بها افريقية والشرق الاقصى فى الوقت الحاضر ؛ وهو أكثر ميلا إلى التشاؤم ، ولا يرى فى النظم والمجتمعات الحالية سوى معترك من الأنانية القومية . ويخشى أن يسفر هذا الاضطراب عند أية لحظة عن الانفجار الذريع الذى يحمل العالم إلى مصير كله الويل والدمار

ويعنى المستر فرويند بمركز المانيا الهتلرية بنوع خاص . ويرى أنها تمثل الآن طوراً من أطوار الطموح والتوسع ، لابد له أن ينفجر آجلا أو عاجلا ؛ ومن حسن الحظ أن ميول هتلر الشخصية وبغضه المأثور لروسيا والبلاشفة يحول دفة المعترك اليوم إلى جهة الشرق وإلى الجنوب الشرقى ؛ ولكن إذا مات هتلر ، أو إذا استطاعت روسيا أن تسحق تحديه ، فقد تتجه ألمانيا إلى ناحية أخرى ، وقد تتجه إلى الأمبراطورية البريطانية . ويرى مستر فرويند أن ألمانيا الهتلرية قد بدأت بالفعل تتجه إلى مناوأة المصالح البريطانية فى كثير من المواطن ، وأن السياسة الانكليزية تسىء صنعاً إذا هي لم تعتبر بهذه الحقيقة وآمنت بوعود هتلر وتأكيداته ؛ وعلى أى حال فان المصاعب الداخلية التى تتخبط فيها ألمانيا الآن كفيلة بأن تشحذ سياسة العدوان الألمانية وتدفع المانيا فى طريق الحرب والاعتداء

أما عن إيطاليا فيرى مستر فرويند أنها تنمو وتتقدم باستمرار ، وأنه لابد أن تأتى الساعة التى تضطر انكلترا فيها إما إلى الحرب وإما إلى التراجع ، لأنها لا تستطيع أن تنزل عن سيادتها فى البحر الأبيض المتوسط دون المخاطرة بكل مركزها فى إفريقية والشرق الأدنى . كذلك يتوقع الكاتب أن تضطر انكلترا قريباً إلى الوقوف فى وجه اليابان بشىء من الحزم لأنها بدأت فعلا تهدد منطقة المصالح البريطانية . ويعرض مستر فرويند نظرياته بقوة وصفاء ويدعمها بكثير من الحقائق والحوادث الواقعة

رأى جديد فى أسباب الثورة الفرنسية

يرى البحث الحديث رأيا جديدا فى الثورة الفرنسية وفى أسبابها ، فبينما تجمع الروايات والبحوث القديمة كلها على أن الثورة ترجع إلى أسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية فقط ، إذا بالبحث الحديث يرى أنها ترجع أيضا إلى جهود الجمعيات السرية الخفية ولا سيما محافل البناء الحر « الماسونية » وأن هذه الهيئات السرية قد لعبت من وراء الستار دورا عظيما لإضرام نارها

وقد ظهر أخيرا كتاب بالانكليزية عنوانه : « لويس السادس عشر ومارى انتوانيت قبل الثورة » Louis XVI and M. Antoinette before the Revotution بقلم السيدة نستا وبستر N. Webster وفيه تميل المؤلفة إلى الأخذ بهذا الرأى ، وتفصل العوامل والظروف الخفية التى كانت تحيط بهذين الملكين التعيسين قبل نشوب الثورة . وترى السيدة وبستر أن المساعى الخفية التى قامت بها الجمعيات السرية وراء الستار كانت كالأسباب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية عاملا خطيرا فى نشوب الثورة الفرنسية ؛ ومن رأيها أن قضية عقد الملكة الشهيرة التى ثارت حول اسم الملكة واتهم فيها الكردينال دى روهان والكونت كاجليوسترو ، إنما ترجع إلى تدبير هذه القوى الخفية ، وإن كاجليوستر لم يكن سوى داعية خطر يحمل رسالة هذه القوى ، ويحيك شراكه من وراء الكردينال . ولقد كانت هذه القضية أو هذه الفضيحة من أعظم أسباب الثورة ، ومع أن السيدة وبستر تعدد عيوب مارى انتوانيت ووجوه ضعفها كامرأة وملكة ، فانها تدافع عنها فى موطن الشرف والكرامة ، وتقول إن الدعاية الواسعة التى أثيرت حول اسمها لتشويه سمعتها الشخصية لم تكن سوى مزيج من الأكاذيب والوشايات المدبرة وأن مارى انتوانيت ، كانت امرأة وافرة الشرف والعفة ، وملكة وافرة الكرامة والعقل .

الكتب

رسالة المنبر الى الشرق العربى

للأستاذ فليكس فارس

يقول الله فى صفة بقية من القوم الصالحين من القسيسين والرهبان « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » وقد قرأت كثيراً من هذا الكتاب فتراءت لى هذه الآية ، وتراءى الأستاذ فليكس فارس بقية من هذه البقية الصالحة ، فهو طالب حق لا يغفل ، وساع إلى غاية لا يمل . والكتاب مجموعة من أدب الأستاذ تربط بينها هذه الرابطة : طلب الحقيقة مبرأة من العصبية لما يخالفها ، وسعى إلى غاية مبدأة فى الطلب ، يحتمل فى سبيلها إرهاق الفكرة للبلوغ ، وحرمان النفس للسمو ، والعدل بين المتخالفين لاقرار الحق وتثبيته والعلو به عن نوازع النفوس وشهواتها ، وهو فى ذلك فارس كاسمه متدفع متدفق ، مأمون العثرة ، حديد النظرة ، ثابت الجنان لا يرهب ولا يتخلف

وقد تعاطى ـ فى كتابه ـ القول فى كثير من الأدباء ، وتكلم فى أدبهم الكلام القسط ، وكشف ببيانه عن الحقيقة الأدبية التى انطوى عليها أدبهم ، وعن الحقيقة الفنية التى اشتملت عليها جوانحه ، وأفصح عن الحقيقة الشرقية التى تعمل فى حياة الشرق عمل الدؤوب والاستمرار لتجعل فى ضعفه قوة عضلة تستعصى على الأنياب الأجنبية التى تزعم أنها (تستعمر) أرضه وبلاده ونفوس أهله وبنيه . فجزى الله (فارس الحلبة) خير ما جوزى مجاهد عن أمته .

وقد سمى الأستاذ الفارس كتابه « رسالة المنبر إلى الشرق العربى » وأصاب ، فهو فى جوهره يحمل الأصل المشرق الذى تكون منه الرسالة . ففيه الشمول والتعدد واختلاف الأغراض وما يتبع ذلك مما يمتاز به الكاتب من جودة الفكرة ، وجلاء العبارة ، وحسن القصد ، وبلاغ الغاية . فأنت من أول فصل مندفع إلى قراءة البقية لما تجد من الروعة واللذة والفائدة .

بدأ رسالته بقوله « نحن وأنتم » ، وهى أول رسالة إلى البلاد العربية مصر والشام والعراق وأرض الحجاز فهو فيها عربى قد غلبته عروبته على هواه وعلى عصبيته ، يدعو دعوة الحق لليقظة والاتحاد والتعاضد والتخلص من آصار العبودية القاتلة التى تتلجلج فى أوهامها تلجلج المحموم ، ثم يتدافع من ثم إلى رسالته فى الثقافة الشرقية والعربية ، فهو عربى مفكر يقظ مؤمل هاد إلى حقيقة الثقافة الشرقية العربية ، عامل على ربط الأول بالآخر من هذه الأمة ، داع إلى نبذ الأوهام المتمكنة من وباء الجهل القديم ، والسمو عن التورط فى التقليد الذى لا يرد بنا إلا موارد التلف . ثم يقف بك على باب من أدب (جبران) وهو كتاب وحده فيه من الفكر ما تختلف عليه العقول ، وحسب القارىء أن يقرأه فان فيه روح الكاتب متجلية كاشفة ناقدة بصيرة عليمة بفنها وإحساسها قادرة على الابانة عن خلجاتها خير الابانة . ثم الرسالة الخامسة وهى إصلاح الحياة البيتية ، وهو من أدق أبواب هذه الرسالة ، يبين عن الفكرة الاجتماعية المخلصة التى تدفع الأستاذ إلى البصر والتفكير والنقد والتمييز ، ولولا ما يحول بيننا وبين الافاضة لأثبتنا بعض هذا الباب وعقبنا ، فهو على جلالته فيه مواقع من القول لو عاد اليها الأستاذ بثاقب فكره ومسدد نظره لا نكشف له الحق الذى ينشده ويبغيه .

وأما الرسالة الأخيرة فهى « المهود فى الشرق والغرب » وهى التى كتبها بالفرنسية ونشرها ثم ترجمها إلى العربية ، فلا غرو أن كانت هذه الرسالة « هى رسالة الشرق والغرب » فانها بنيت على أصل ثابت من نظرة الشرق المتحفز بشرقيته فى الحياة الغربية التى انتقلت إلينا انتقال الوباء . وأهم ذلك مسألة النسل ، وقد كان الرافعى قد كتب « رؤيا فى السماء » ، فترجمها الأستاذ الفارس واستخرج منها الحكمة الاسلامية فى الزواج والنسل وما أعجزت به هذه الشريعة فكر الانسان فى إصابتها مكان الداء على اختلاف الزمان والمكان ، وانطوائها على الدواء الذى لايدع للعلة ما تتعلق فى الجسم الاجتماعى

فهذه هى رسالة المنبر إلى الشرق العربى ، وهى قبس من اشراق هذا الشرق المتلفع المتجافى ذى الأهوال والأسرار

ثمن الكتاب عشرة قروش ويطلب من إدارة الرسالة ومن المكاتب الشهيرة .

(ش)

نظرات تاريخية دستورية

للأستاذ حسن صادق

١٨٠ صفحة من القطع المتوسط

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

قلما يعالج الباحث القانوني فى مصر موضوع البحث الدستورى، وقلما يتناول الانظمة النيابية فى العالم بأى درس أو بحث. وإذا استثنينا بضع مذكرات موجزة يضعها أساتذة القانون لطلبتهم. فاننا نرى هذا الميدان خلوا من أقلام الباحثين.

وأخيرا يطالعنا الأستاذ حسن صادق بكتابه «نظرات تاريخية دستورية»، ويشمل هذا الكتاب ثلاثة بحوث مستفيضة لثلاثة من دساتير العالم الهامة التى تكونت بعد الحرب العظمى وهى: الدستور الألمانى، والنمسوى، والتشيكوسلوفاكى.

مهد الأستاذ لكتابه بمقدمة قصيرة، أوضح فيها كيف جاهدت مصر فى سبيل دستورها على يد زعيميها، وبين فيها كيف كان لزاما على المصرى أن يعرف ماله من حقوق وما عليه من واجبات، وأشار فيها إلى أن الغرض من كتابه هو المساهمة فى تربية الشعب تربية دستورية صادقة.

ثم بدأ الكاتب بدراسة الدستور الألمانى دراسة دقيقة، فتكلم أولا عن الوجهة التاريخية فى ذلك الدستور منذ أن سنه بسمارك فى ابريل سنة ١٨٧١ فخاض ذلك الشعب الذى رسف فى قيود الرجعية زمنا طويلا، والذى آده الظلم وأضنته الآلام من نير الظلم ووطأة الاضطهاد، وعلمه كيف يحكم نفسه بنفسه، وكيف يصبح سيداً لامسوداً، وكانت ألمانيا إلى قبل الحرب مكونة من دويلات صغيرة، وكانت السيادة فى دولة الريخ ممثلة فى مجلسين: الأول وهو البندسرات ويتكون من مندوبى أمراء الدول. والثانى الريخستاج وينتخب من الشعب. ثم الأمبراطور وهو الرئيس الأعلى للدولة.

واستمر الحكم على هذا النظام إلى أن شبت ثورة سنة ١٩١٨. وأخذ الشعب يعمل بجد وعزم حتى سن لنفسه دستوراً، يذهب فى الديموقراطية إلى أبعد حد. وأنشأ سلطاناً نيابياً يعبر عن سلطته حق التعبير، وجعل نفسه الحاكم العام فى كل خلاف يقع بين عناصر الدولة، وبذلك جعل الشعب الحكومة تستمد منه سلطانها وتدين له بمناصبها إن شاء أسقطها، وإذا شاء أبقاها، وفى ذلك اطمئنان الشعب.

ثم انتقل الكاتب إلى الكلام عن الدستور النمسوى فبين لنا كيف تخلص ذلك الشعب بعد جهاد طويل من أغلال الامبراطورية النمسوية التى قيدته زمناً طويلا. فما أشرق عام ١٩١٨ حتى هب الشعب يطالب بحقوقه. فسن لنفسه دستوراً ووضع السلطة كلها فى يد المجلس الوطنى، وهذا المجلس له حرية مطلقة فى تحديد انعقاده وتأجيله ولا يمكن لرئيس الدولة أو الوزارة التدخل فى ذلك. وفى أثناء الحل والعطلة تقوم مقامه لجنة تراقب أعمال الحكومة. وإذا خالف الرئيس أو الوزارة قواعد الدستور حوكموا أمام المحكمة الدستورية. والدستور النمسوى منظور فيه إلى الدستور الألمانى ومقتبس منه فى بعض أجزائه.

أما الشعب التشيكوسلوفاكى الذى نزلت به ضروب الظلم، وصنوف الارهاق أيام الامبراطورية النمسوية فانه انتهز فرصة انهزامها سنة ١٩١٨، فأعلن استقلاله، وسن لنفسه دستوراً مقتبسا من دساتير العالم الأخرى. ونص فيه على وجوب دوام الحياة النيابية وذلك بتأليف لجنة من ٢٤ عضواً ستة عشر من الشيوخ وثمانية من النواب، تزاول عمل البرلمان فى عطلته وذلك لضمان وجود السلطة التشريعية حتى لا تستأثر السلطة التنفيذية بالأمر.

ومما يلاحظ فى الكتاب أن الدساتير الثلاثة التى اختارها الاستاذ متشابهة إلى حد ما، ويشمل ذلك التشابه أيضاً نظام الحكم فى هذه الدول الثلاث (الحكم الجمهورى) فلو أن الكاتب الفاضل اختار لنا صوراً مختلفة من الدساتير العريقة الأخرى التى يمكن للشعب أن يفيد من تجاربها الدستورية لجاء الكتاب جامعاً شاملا.

والكتاب - فى دقة آرائه وبحوثه - مجهود موفق نشكره للاستاذ، وقدوة طيبة نرجو أن نجد فى مصر من يقتدى بها، وثمرة تبشر باهتمام الكتاب بالناحية الدستورية، ومساهمتهم فى تربية هذا الشعب تربية دستورية صادقة.

أحمد ف. م

التلميـــذ

لبول بورجيه

ترجمة الأستاذ عبد المجيد نافع

لعل من فضول القول أن يتحدث متحدث عن الفراغ الذى ملأته ترجمة هذه القصة إلى العربية، فما أشد ما كانت تمتلىء قلوبنا أسفاً وحسرة حينما نرى الدنيا تتحدث عن بول بورجيه، ونسمع بأدبه وترى فى قصته الخالدة Le Discible مثلا من أروع المثل للقصص المفتن الدقيق، والأدب العالى الجليل؛ ثم تتلفت حولنا، فنرى مكانه فى العربية خالياً إلا من كلمات عنه طائرة هنا وهناك، لا تمثل فى ذهن القارىء العربى أدبه، ولا يمكن بطبيعة الحال أن يجد فيها ذلك المتاع الفنى المهذب، أو يستشعر لقاءها تلك اللغة العقلية السامية التى يبتعثها فى النفس أدب ذلك الأديب.

وقصة التلميذ التى بين يدينا هى، فيما يقول بعض نقاد الأدب الفرنسى، أروع ما كتب بول بورجيه وما نحسبهم أطلقوا هذا اطلاقا إلا أنها خير ما يمثل مذهبه فى كتابة القصة. فقد أبدع فيها أيما إبداع فى عرض الدقائق النفسية عرضا فنياً خلابا، وتحليل الأمزجة العقلية المعقدة تحليلا عبقريا رائعا، حتى لا يكاد يفلت منه عنصر

من العناصر التى تكون الشخصية ، على ما فيها من غموض وإبهام وتصوير ذلك فى صورة فنية منسقة مضطردة ، لايحس القارىء فيها بنبوة ، ولا يلمح بها شيئا من الصنعة المتكلفة ، أو التلفيق البغيض .

وهو فى هذه القصة يعرض شخصية شاب من شبان القرن التاسع عشر ، وهو من أعقد العصور فيما أحسب إذا اعتبرنا التأثيرات المختلفة ، والنزعات المتباينة ، والاتجاهات الغريبة التى تعرض لها الفكر الأوربى فى تلك الفترة من الزمن ، وامتحن بها محنة ظهر أثرها فى جميع مجالات الحياة ، فلا يدع شيئاً مما يكون الشخصية حتى يسوقه فى سياقة الغنى الرائع ، فاذا أتم عرض شخصيته فى صورة فيلسوف من فلاسفة ذلك القرن . قد فنى فى الفلسفة حتى صار صورة حية منها كر عليه كرة أخرى ، فاذا بذلك كله آثار سطحية ، وإذا بتلك الصبغة الفلسفية وهذه الصوفية العلمية لم تستطع أن تغير من كيانه الداخلى أو تنسخ ذلك الميراث الذى ورثته الانسانية الحاضرة عن أناسيها الأولى . فما تزال له من تحت هذا الظاهر الوقور المتزن غرائزه الطبيعية الكامنة التى كان يبدو بادىء الرأى أنها ضعفت وتلاشت بتأثير تلك الحياة الفلسفية الخلابة ، ولكنها لم تلبث أن وجدت فى البيئة التى تلائمها : ورأت من حولها موضوعا لبروزها ونشاطها حتى ثارت ثورتها ، وخرجت من مكمنها ، ملونة ألواناً . . بتأثير المؤثرات المختلفة التى كونت صاحبها ، ولا تزال تعمل فيه وتوجهه فى طريقها وفى هذه الألوان الغريبة التى عملت فى تكييفها شتى العوامل ، وفى اظهارها مفتنة متموجة ، تتجلى عبقرية بورجيه وقدرته الفائقة على تحليل الحالات النفسية المعقدة إلى دقائقها ، وتصويره لها فى أروع صورها وأدقها ، فى أسلوب بيانى خلاب .

فما من شك فى أن هذه القصة من أعجب المثل الأدبية الخليقة بالخلود ، الحقيقة بأن تمثل فى كل لغة تقيم للأدب العالى وزناً ، فللأستاذ المترجم أخلص التهنئة على هذا التوفيق الذى صادفه فى ترجمتها ، وأجزل الشكر على الجهد البليغ الذى بذله فيها ، حتى جلاها فى أسلوب عربى رائق ، ومظهر من النشر أنيق .

* * *

وبعد فقد كنا نود ، مع هذا الصنيع المبارك المشكور ، لو أن الأستاذ المترجم عنى بأن يبرز إلى اللغة العربية صورة من هذا الأثر الفنى الخالد دقيقة كاملة بتفصيلاتها . كما أبرزها جملة وافية فى جملتها . ولكنه اتخذ لنفسه مذهبا فى الترجمة وضع فيه الأدب ودقة النقل فى المكان الثانى . ووضع فيه جمهور القراء فى المكان الأول : فهذه صورة لاتتفق مع تقاليد جمهورنا ، إذن يجب أن تبعد ! وهذه مسالة فلسفية أطنب المؤلف فى عرضها حتى لا تلائم عقلية جمهورنا ، إذن يجب أن تبتر ! وهذا إسهاب فى التحليل والتصوير يبعث السأم إلى نفوس جمهورنا ، إذن يجب أن ينفى ! ولا بأس بشىء من ذلك مادام سياق الرواية مضطردا ، ووقائعها متسقة ، وفكرتها محققة . هذا هو مذهب الأستاذ المترجم عرضه فى مقدمة ترجمته . وعندنا أن هذا المذهب إن جاز أن يتخذ فى نقل بعض الآثار الأدبية الأخرى فلا يجوز أن يتخذ فى هذا الذى سماه الأستاذ المترجم نفسه خالدا ، والذى صدر عن نابغة كتاب فرنسا حقا ، فهو أثر عالمى لاينبغى أن يخضع لسيطرة بعض هذه الاعتبارات البسيطة . على أنا لانمنع مع هذا أن المسألة دقيقة كل الدقة ، وأن الفصل بين المذهبين ليس من الأمور الهينة التى يتقبلها الضمير دون معاناة .

أما أسلوب المترجم فهو على ما نعرف منه : عربى جميل ناصع ، لاابتذال فيه ولا إبهام . وقد وفق ـ على حد قوله ـ إلى إحلال المعانى الغربية فى معان عربية . على أنا كنا نود أيضا أن لو برىء من مثل هذه العبارة : « عالما لايشق له غبار ، ولايصطلى له بنار » فليس هذا فيما نحسب معنى عربيا ، بل هو دمنة بدوية .

وهناك هنوات لغوية لا نرى بأسا فى أن نشير إلى شىء منها مثل قطع همزة الابن فى صفحة ٤١ ، ومثل قوله (ص ٥٥) أصبحت وأمى وحيدين ، والصحيح الفصل فى مثل هذا بالضمير المنفصل فيقال: « أصبحت أنا وأمى وحيدين » ، ومثل قوله (ص ١٩) « قد تلق خمسة أو ستة خطابات » وليس هذا فيما أحسب بناء عربيا ، وإن كان من الممكن أن يخرج له وجه نحوى ، والعربية المستقيمة تقول : خمسة خطابات أو ستة وهذا على كل حال أمر هين يسير ، لا يغض من القيمة الأدبية لذلك الصنيع العظيم .

« الحاجرى »